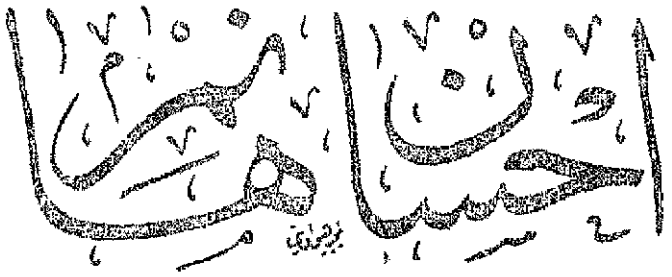

مجموعة قصص مصرية عصرية

احسان هانم — انا لك .. — مأساة قروية

النزعة النسائية

مذكرات حكمت هانم

تأليف

عيسى عبيد

obeikandl.com

اهداء الكتاب

الى صاحب المعالي سعد باشا زغلول رئيس الوفد المصري

يا معالي الرئيس .

كنت أتمنى أن أهدي الى معاليكم روايتي « يقظة مصر » التي سأصور فيها صفحة من حركتنا الوطنية المجيدة تلك الحركة التي كنتم يا معالي الرئيس أول من أيقظها عن طريق الوطنية كما سبق ان أيقظها عن طريق الدين سلفكم المجيد فقيد الوطن المرحوم مصطفى باشا كامل . الا ان وطنيتي دفعتني ان أهدي لمعاليكم باكورة مؤلفاتي اعترافاً لما أديتم من الخدم الوطنية الجليلة التي سجلها لكم الأمة المصرية على صفحة فؤادها الخالد

فبعظم شجاعتكم يا معالي الرئيس وتفانيكم واخلاصكم ضربتم لنا المثل الأعلى للوطنية الصادقة وبقوة آمالكم ومتانة ثقتكم في قوى أمتكم الناهضة العظيمة الى المجد علمتنا ان لا نضعف ولا نيأس وما زلت أذكر المجلس الذي ضمني يوم تشرفت بالمثول بين يديكم لتهنئتكم بحلول عيد رمضان المبارك فقد أبدى لكم حينئذ شقيقي الاكبر تخوفه من نجاح الوزارة في التسلط على عملية انتخاب المجلس النيابي وحمل الأمة بواسطة ذلك على قبول مشروع لا ينيلها الاستقلال التام فقد أخذتكم هزة غضب . غضب شريف عادل ازاء ذلك التخوف الدال على اليأس وضعف الثقة والايمان وهتفتم تقولون بكل ما فيكم من قوة العزيمة والتحمس الملتهب الناري « ان الأمة لن تخدع ولن تقبل الا الاستقلال التام »

أجل يا معالي الرئيس فأمة زعيمها رجل عبقري مثلك لا يمكنها ان تخدع وتتسرب الى نفوسها عوامل الضعف واليأس لان شعورنا الوطني القوي المتدفق لا يخنق ولا يموت وسيقتل ويجرف من يحاول قتله من عمال الحماية ودعاة التفريق .

فهذه هديتي يامعالي الرئيس وهي هدية حقيرة يقدمها كاتب مبتدئ مجهول له آمال عظيمة بأن تستقل بلاده المصرية الاستقلال التام ويستقل معها الفن المصري ؟

ديسمبر سنة ٩٢١ عيسى عبيد

obeikandl.com

مقدمة

﴿ كلمة عن الفن والأدب الحديث في مصر ﴾

١

الفن القصصي في مصر فن وليد لم يستوف حقه من الجلاء تجاه أفكار كتابنا المصريين لاستغراقهم في وضع أو تعريب الروايات المرسحية مما قد كاد يكوّن عندنا الفن المرسحي قبل الفن القصصي بعكس ما تم في فرنسا فان بلزاك وفلوبر وجونكور وزولا ودوديه كانوا يضعون الروايات القصصيه المأخوذة عن صور الحياة المبنية على الملاحظات الدقيقة والتحليلات الصادقة والنظرات العلمية بينما كان مرسحهم لا يظهر الا الروايات الخيالية الضئيلة الجوفاء فتمكنوا بفضل مؤلفاتهم الناضجة القوية من ان يطهروا المرسح ويحرروه من ربقة المصطلحات الصبيانية السخيفة .

أما سبب اقدام كتابنا على المرسح واهمالهم القصص فذلك لأن المرسح أضمن لفائدتهم المادية والادبية ولأن الحرب بايجادها أزمة الورق قضت تقريباً على حركة الطباعة وحالت دون اقدام الكتاب على تأليف القصص على ان هنالك عوامل أخرى ترجع الى مزاج الكاتب المصري ونفسيته تجعلنا لا نجازف بكثير من الامل في ارتقاء هذا النوع عندنا بالسرعة المبتغاة لان حرارة الطقس قد أغت في الكاتب المصري حاسة الخيال الى درجة مدهشة فأصبح هذا الخيال ظاهراً أثره السيء في كل رواية مصرية بتجنبه تصوير الحياة الحقيقية ثم ان التقاليد الشرقية المقيدة قضت تقريباً على

الاختلاط الجنسي وأضفت من أزماته النفسانية الشديدة فمن جهة كاد يجهل هذه الازمات وما تحدثه في النفس البشرية من التطور الخلقي فيعجز بطبيعة الحال عن تصويرها في أشخاصه ومن جهة أخرى فهو لم يتدرب بعد على الملاحظة والتحليل النفسي وهما ملكتان تنموان بالخبرة الشخصية الطويلة فاذا حاول وضع رواية لا يحسن ان يكوّن من عنديّاته ذاتية فردية لاشخاصه فتبدو لنا هذه الاشخاص أشباحاً بلا أرواح فاذا أراد ان يصور شاباً يسير الى اذن حبيبته « أنشودة الشباب الخالدة » ثم راه يعمد الى الخيال والتخمين والتكلف اذ يجعل المحب يخاطب حبيبته بعبارات لا خصوصية فيها كتصويره لها جمال الطبيعة وتغريد العصافير ونشيد الحمام وخرير المياه وغير ذلك من السخافات الصبيانية والاحساسات المريضة الضئيلة مما يقضي عادة على شخصية الاشخاص ويحرمهم من عنصر الحياة

فمهمة الكاتب ان يدرس اولا مزاج شخصه لان له تأثيراً عظيماً في تكييف عواطف الانسان وأخلاقه اذ قد يكون المزاج سبب سعادة المرء أو شقائه فصاحب المزاج السوداوي المتشائم الذي يرتاب في كل شيء حتى في صدق عواطف المرأة التي يحبها وتحبه تساوره دائماً الافكار المؤلمة المتضاربة فاذا قابل حبيبته لا يحدثها عن الاشجار والطيور والازهار بل عن ظنونه وآلامه فيرميها مثلاً بالخلاعة والتهتك او يتهمها بانها لا تحبه وانها تنظر الى غيره وهي تحاول بلطف اولا أن تبرئ نفسها مما اتهمها به ثم انها تغضب أخيراً لعناده واصراره على اعتقاده انها مذنبة مجرمة وهي المحبة المخلصة وقد يحملها أحياناً غضبها الشريف العادل على قول عبارات جارحة مهينة تؤدي الى

افتراقهما الابدي ! فأين هذا التشاجر المتلج الناري من تلك المغازلة الشعرية الهادئة الوديعة ؟

ثم أن مهمة الكاتب أن يدرس في اشخاصه المؤثرات الوراثية التي أخذوها عن ابائهم وجنسيتهم وان يحلل عوامل وسطهم وظروف حياتهم التي ساعدت على تكوين شخصيتهم حتى يرينا المشاعر التي يمكنهم أن يشعروا بها فان حب الشاب في الخامسة عشر يختلف طبعاً عن حب من كان في الخامسة والعشرين أو الثلاثين وحب هذا يتباين عن حب الشيخ كما أن لظروف الحياة تأثيراً عظيما في انضاج عواطف الانسان فرب شاب في الثامنة عشر يحب حب الرجل القوي الناضج الحواسي كما أن الشاب الناضج قد يحب حب الطفل الشاب ذلك الحب الطاهر الاحساسي .

ومتى وقف الكاتب على مزاج اشخاصه وطبيعتهم يمكنه بكل سهولة أن يصورهم بدون أن يضطر الى استعمال التكلف السقيم البارد ويتسنى له أن يقتبس من أخلاقهم حادثة روائية انسانية محضة تكون نتيجة طبيعية لمزاجهم وشخصيتهم لا دخل للخيال في تكييفها

٢

فيتضح مما تقدم انه لا بد للكاتب المصري من الالمام التام بعلم النفس للوقوف على كنه الطبائع البشرية ونرى أن الكاتب المصري لم يتنبه حتى الآن الى مراعاة قواعده في كتاباته وفي تكوين شخصية اشخاصه وليس غرضنا أن ندرس في هذه المقدمة الوجيزة عيوب الكاتب المصري وامراض

ذهنيته قد حاولنا درسها في كتاب سننشره على حدة اما اتينا على بعض تلك العيوب ليتمهدها ويهذبها من وجد في نفسه القدرة على وضع القصص حتى يساعدنا على ادخال هذا النوع الجديد في آدابنا العصرية المصرية

ثم أن أهم تلك العيوب في عرفنا بعد عيوب الخيال وقلة الملاحظة وعدم التحليل التي نوهنا عنها ضعف ملكة الوصف والتصوير فان تصوير الامكنة التي تنشأ فيها الاشخاص من أهم مقتضيات هذا الفن لان لها تأثيرا في تكييف خواطرهم ومشاعرهم ثم أن للتصوير الصادق الحيوي الدقيق أثراً عظيما في نفس القاريء لانه يجعله يشعر بصحة الرواية المأخوذة عن الحياة وبحقيقة وجود الاشخاص المصورين عن الطبيعة

أما سبب ضعف الكاتب المصري في مجال التصوير فلعدم تدربه عليه أو لجهله أصول الفن الحقيقي فانه اذا وجد مثلا مكاناً جميلا فلا يحاول أن يصوره على القرطاس كما شاهده بل يتوهم أن الطبيعة كما هي ليست جميلة جمالها الحسي الفني فيريد أن يزيدها جمالاً فيعتمد طبعاً على خياله فيأتي لنا بوصف عقيم غامض ركيك اذا راجعناه في مخيلتنا لا يتبقى منه شيء ويخرج ذهننا خالياً كما كان قبل قراءته مع ان الفن لا يرمى فقط الى تجميل الطبيعة وتكميل النفوس لاظهار الجمال السامي الخالي من النقائص كما يتوهم البعض بل قد يكون ايضاً في تصوير الحقائق العارية المجردة وتعريفنا للفن هذا التعريف الجديد سيوجد لنا آداب مبنية على الحقائق تختلف كل الاختلاف عن آداب الامس وسينشأ من هنا تعدد الانواع الادبية والمذاهب الكتابية مما يدعو الى رقي الادب الحديث الذي اوقف تطوره تقليدنا الاعمى

الجامد الذي لادب العرب القديم وعباراتنا لهم في الخيال والتشبيه والاستعارة والمحسنات البديعية والعبارات اللغوية

وان ميل الكاتب المصري الى تهذيب الطبيعة وطلاؤها برواء الجمال النقي عزيزي يتجلى في كل سطر يخطه ويكفينا لتعزيز هذه النظرية ان نلقي نظرة واحدة على كتابنا . ألم يجعل السيد لطفي المنفلوطي كبير كتاب اليوم روايته « تحت ظلال الزيزفون » التي حاول تعريبها عن الفونس كار خيالية شعرية بعد أن قضى بقسوة على شخصية استيفن . اننا لا نؤاخذه على ذلك فنحن ممن يحترمون الرجل ولو كان مذهبه في القصص ونزعته الى التأليف خلاف مذهبنا ونزعتنا لاننا ممن يدعون الى تعدد الانواع الادبية والمذاهب الكتابية لادخل عناصر الحياة في الادب الحديث الا ان تعديله شخصية الاشخاص وتحريفه الرواية هذا التحريف ألا يدل على خضوعه لحكم مزاجه الشرقي الذي دفعه الى تصوير الكمال الانساني والمثل الاعلى للحب الروحاني ثم ان مجرد اختيار المنفلوطي تلخيص رواية « سيرانو دي برجراك » تلك الرواية الخيالية الوجدانية ألا يعد دليلاً كافياً على وجود نزعة كامنة في الكاتب المصري تجنح به الى تصوير الجمال النقي والكمال السامي البعيدين عن الحقيقة بعد السماء عن الارض ؟

فهذه النزعة النفسية ستدفع بالكاتب المصري الى مذهب الوجدانيات « الاديالسم » وستعرقل سير الادب المصري في تطوره الجديد فأدب الغد سيقام في عرفنا على دعامة الملاحظة والتحليل النفسي الراميان الى تصوير الحياة كما هي بلا مبالغة أو تقصير أي الحياة العارية المجردة وهو ما يدعونه

مذهب الحقائق « الرياليسم » وعلى ذلك فسينشب قتال عنيف بين أصحاب المذهب القديم مذهب الوجدانيات وهم الاكثرية وبين أنصار مذهب الحقائق وهم قلائل تسربت الى نفوسهم عوامل جديدة من أثر وقوفهم على فنون الغرب المتمددة الحية فمن عليهم ان يروا جمود آدابهم المحتضرة فأحبوا ان ينفخوا فيها روحاً جديدة قوية تحطم القيود الماتية والاوضاع السقيمة التي رسمتها لنا أجدادنا فلأي الفريقين يكون الانتصار ؟

اما نحن فنوقن بان انصار الحقائق سينجحون رغما عن قلة عددهم وينتصرون على خصومهم الاقوياء ولكن بعد عناء شديد ومضي مدة طويلة لان الشعب المصري شعب محافظ أخلاقي قبل كل شيء يعبد قديمه ويقدس ما صنعه الآباء متوهما ان ما وضعته اجداده العرب هو الحد النهائي للكمال الانشائي الفني الذي يجب ان نترسمه باحترام واجلال ولما كان الشعب المصري متفائلا اخلاقيا يعتقد بطهارة أخلاقه وعبقرية تقاليده الموروثة المقدسة فستؤلمه الحقيقة المرة الجافة القاسية ويهب في وجه من يتصدى الى تصويرها محتجاً مستنكراً محاولا تكذيبها ليستبقي احلامه اللذيذة

على أننا في ابان نهضة كبيرة أوجدتها حركتنا الوطنية ومن شأن النهضة ان تحدث عادة انقلابا في العادات والتقاليد وتغيراً في الميول والافكار وقد ظهر اثر ذلك في كتابة كثير من كتاب الناشئة الجديدة فقد تجلوا لنا انهم من أنصار الجديد وهم متفقون معنا على ضؤولة آدابنا الحالية وجمودها ومتطلعون الى آداب جديدة تضارع الاداب الغربية بالصفة العلمية والطريقة التحليلية والمرامي الفنية وهذا مما يثلج صدورنا ويفعم نفوسنا بالامل الكبير

من نجاح قصصنا وروايانا المصرية لان غايتنا منها ايجاد أدب مصري موسوم بطابع شخصيتنا المصرية وتمثل حياتنا الاجتماعية والنفسية والوطنية

وقد جاء الدكتور احمد ضيف أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية في كتابه « مقدمة في بلاغة العرب » مؤيداً لنا في نظريتنا اذ قال بوجوب ايجاد آداب عربية مصبوغة بصبغة مصرية ولاشك ان كتابه هذا سيخلق عهداً جديداً في عالم الادب المصري الحديث ويخط طريقاً جديداً للادباء

واننا لنشكر الاستاذ على اظهاره هذا الكتاب ونرجو منه ان لا يضن علينا بطبع محاضراته القيمة كما ان رجاؤنا هذا موجه أيضاً الى سائر اساتذة الجامعة المصرية لاسيما الاستاذ حسين افندي رمزي لما سيكون لمحاضراته العلمية النفسية من التأثير على الادب الحديث

٣

اما غاية الرواية فيجب ان تكون التحري عن الحياة وتصويرها بأمانة واخلاص كما تبدو لنا وجمع كمية كبيرة من الملاحظات والمستندات الانسانية بحيث تكون الرواية عبارة عن « دوسيه » يطلع فيه القاري، على تاريخ حياة انسان او صفحة من حياته ويجمل بالكاتب ان يدرس فيها اسرار الطبيعة البشرية وخفايا القلب الانساني الغامض والتطور الاجتماعي والاخلاقي وعوامل الحضارة والبيئة والوراثة في نفوس الاشخاص وذلك مع بعض التحفظ في ابداء حكمه او ارائه الشخصية لان مهمته الاساسية تشريح النفوس البشرية وتدوين ما يكتشفه من الملاحظات تاركا الحكم في

ذلك الى القاريء نفسه يستخلص منها المغزى الذي يرمي اليه بخفة ومهارة دون ان يتحمل مشقة المناداة به

وانا لموقنون ان هذه الطريقة الجديدة ستصادف باديء بدء اعتراضاً شديداً من بعض كتابنا الذين يتوهمون انهم أساتذة مرشدون جادت بهم العناية الالهية لهداية الامة وحملها على اتباع آرائهم فانا نخالف ذلك ونحمل تبعة آرائنا فلا يحق للكاتب مطلقاً ان يدعي هذا الادعاء لاننا معرضون دائماً للخطأ فاننا نحكم على حسب امزجتنا وميولنا واذواقنا وامزجة الناس متعددة وميولهم متضاربة واذواقهم مختلفة ومتضادة فلا يصح ولا يحق لنا ان نجبر غيرنا على قبول مالا يسيغه ولا يهضمه ثم ان نفس أذواقنا وميولنا التي نعتمد عليها في الحكم تتغير يوماً عن يوم فقد نستحسن اليوم رأياً ونعشقه وندافع عنه وغداً يتضح لنا اننا اخطأنا وتسرعنا في استحساننا له فننبذه ونحاربه وكيف يمكن للكاتب ان يثبت ان اراءه مفيدة للهيأة الاجتماعية غير مضرة بها فان اعاظم الرجال الذين ارادوا ان يضعوا للبشرية شرائع وأنظمة تؤدي بها الى السعادة الدائمة قد اخطأوا واساؤا الى المجتمع البشري من حيث ارادوا اسعاده .

ومع ذلك فاننا لا نقول بعدم حق الكاتب في الحكم او ابداء الرأي ولكننا نقصد أن يتجلى حكمه ورأيه من ثنايا ملاحظاته وتحاليله لا كما يفعل كتاب العهد القديم من المناداة ايها القوم توبوا الى رشدكم ايها الناس اقلعوا عن الرذائل ايها الناس تمسكوا بالفضائل تلك المناداة العقيمة التي لا تؤثر أدنى تأثير في نفس القاريء بل كثيراً ما تأتي النتيجة ضد رغبة الكاتب اذ يأخذ

القارىء الضجر والملل فيتضايق من تلك الفضائل التي يحشونه عليها بقسوة وخشونة .

وليس للرواية أسلوب خاص أو قاعدة عامة فهي تتناول كل الاساليب والقواعد ما دامت مبنية على الملاحظة والتحليل النفساني فتارة تكون موضوعة في قالب رسالة كقصتي احسان هانم التي صدرت بها هذه المجموعة أو مذكرات أو اعتراف أو قصة أو محاورة ثنائية ما دام دعامتها الملاحظة المأخوذة عن الحياة كما هي بلا تقصير أو مغالاة ولا يعلق الكاتب في الرواية المصرية أدنى أهمية على السياق الروائي لانه سيكون ثانوي أزاء مرمى الرواية الاساسي الا وهو درس أشخاصه وتشريح نفوسهم وتحليل أفكارهم فانه يجب عليه ان يشاهدهم عن قرب ويشرف على أزماتهم فان من الاسباب التي تحمل المؤلف على الجنوح الى الخيال والتكلف عدم المامه التام بشخصية أشخاصه واتيانه في روايته بأشخاص لم يشاهدهم أو شاهدهم عرضاً ولم يتسن له درسهم .

وغايتنا من ذلك ان يضع الكتاب المصريون مؤلفات قيمة ناضجة تظل حية جديدة على ممر الاعوام والاجيال والرواية لا تكون خالدة الا اذا كونت من العناصر الانسانية الخالدة .

هذا ما نطمح اليه نحن كتاب الناشئة الجديدة فنريد ان تكون مؤلفاتنا ناضجة قيمة لا تموت بموتنا فنحن لا نكتب لبضعة المئات من قرائنا وقد لا يوجد بينهم الا نفر قليل قليل جداً يفهمون غايتنا ويقدرون مجهودنا ونحن لم نقدم على فن الادب وهو في الوقت الحاضر فن لا يورث

صاحبه غير الفاقة والشقاء الا ونحن مدفوعون بذلك الأمل أمل جعل اسمنا محترماً عند أطفالنا وأحفادنا الذين سيقرؤننا ويدركون مقدار ماضحيناه لأجلهم من دمائنا ونفوسنا .

— ٤ —

ان الثورة الفكرية التي تسري بقوة هائلة في دمائنا وحملتنا على محاربة كل شيء قديم تجعلنا نستبشر بحدوث نهضة عامة في مصر لان النهضة تتبع عادة الثورة وتكون نتيجة طبيعية لها وستتناول تلك النهضة كل شيء في أحوالنا السياسية والاجتماعية والادبية . فبعد ان رأينا المرأة المصرية المخدرة المحجبة تنزل الى ميدان العمل متظاهرة جنب الرجل مطالبة بشجاعة وجرءة بحقوق بلادها الامر الذي لم تكن تستطيعه قبل ان تهيج الثورة جهازنا العصبي رأينا كتاب الناشئة الجديدة قاموا ينددون بما كنا نقدسه بالامس متطاولين بجرءة متناهية على الرؤوس الكبيرة التي تمثل أدب الامس وأدب اليوم

والثورة المنتظرة في عالم الادب المصري المصري ستر مي الى القضاء على الادب القديم الجامد المتشابه المبتذل فتكون أشبه بالثورة التي قام بها فيكتور هوجو ضد الادب المدرسي والتي نادى بها زولا وجماعته ضد المذهب الخيالي لايجاد مذهب الحقائق أساس أدب الغد .

ونحن اذا نظرنا الى أدبنا في الوقت الحاضر نظرة برئية خالية من الاغراض نظرة محقق يحلل الاسباب والنتائج لتبين لنا ان الثورة قد انتابت التمثيل . فان النوع المجوني المرضي الاباحي ليس هو بالحقيقة الا مظاهرة أو شبه

ثورة ضد القديم المبتذل ضد الانواع الغريبة التي مجها واستقاء منها الجمهور المصري وقد حمل هذا النوع أصحاب الفرق على تغيير منهجهم التمثيلي فأخذوا يكثرون من تمثيل الروايات المصرية المصرية بعد ان اتضح لهم وجوب وسم مرسحنا بطابع شخصيتنا لان المناظر القومية والالوان المصرية الصميمة تثير فينا عادة حاسة اللذة والاعجاب ولعل النجاح الذي صادفه النوع المجوني الضئيل يرجع الى المسحة المصرية التي تتجلى فيه بدليل عدم نجاح الروايات التي من هذا النوع الخالية من المناظر القومية الصادقة .

قلنا ان هذا النوع حمل أصحاب الفرق على تغيير برنامجهم المادي أما الذين أبوا تغيير رواياتهم بروايات مصرية وأصروا بعناد ساذج غبي على تمثيل رواياتهم المترجمة البعيدة عن ذوقنا المضادة لمزاجنا اضطروا رغماً عنهم اما ان يهاجروا مصر أو يهجروا المرسح كما وقع لقطبين من أقطاب المرسح ونوابغ الفن وهما اذا حدثتهما نفسهما في المستقبل الى الرجوع الى التمثيل في مصر فلا يمكنهما الا على قاعدة تمثيل الروايات المصرية المصرية . فليفهما هذه الحقيقة التي تعبنا لافهامهما اياها ؟

ويحزننا أن نقول ان الادب المصري المصري في وقتنا الحاضر غير مستقل ولا موسوم بطابع شخصيتنا فهو مازال خاضعاً للادب العربي الجامد المتشابه القديم أو متأثراً بنفوذ الادب الاجنبي الذي اضطررنا الى درسه لنتعلم منه اسرار الفن الصحيح الراقي ونأخذ عنه قواعده وقوانينه واسلوبه . فالروايات المصرية المؤلفة معربة ويا للاسف عن المرسح الاجنبي وقصصنا مأخوذة عن القصص الاجنبية وان قام كاتب ليؤلف رواية فهو إما أن يقتبسها

عن رواية اجنبية أو أن يصرها ويجلي في هذه الحالة اضطراب شخصية الاشخاص الذين لايكون لهم غالباً وجود في هيأتنا الاجتماعية وتنعكس الالوان الغريبة بجلاء على روايته فتعدمها المسحة الطبيعية التي هي سر من اسرار الفن الحقيقي وكثيراً ماتكون الحادثة نفسها غريبة عن اخلاقنا وقد لاتقع قط على مرسح الحياة المصرية وذلك ناشيء عن ترسم الكاتب الروايات الاجنبية فواجبنا نحن الكتاب أن نعطي ادبنا المصري المصري صفة حية ملونة خاصة به ويعرف بها ولذلك يجب أن نجتهد أن نحرر ذهنيتنا من تأثير الادب الغربي بان لانتخذ من الروايات الاجنبية قاعدة لروايانا التي يجب أن تشاد على اساس الملاحظة الصادقة المستخرجة من اعماق حياتنا اليومية وعلى التحليلات الاجتماعية والنفسانية فنحن اذا حققنا ذلك لاتينا بشيء جديد يجهله كتاب الغرب لعجزهم عن درس نفسيتنا ونظام حياتنا وسيأتي حينئذ اليوم الذي يأخذون فيه بنقل قصصنا وروايانا الى لغاتهم لان لهم ولع عظيم بكل ماهو مصري خصوصاً بعد أن الفتت مصر انظار العالم نحوها بحركتها الوطنية البديعة المجيدة وحينذاك وحينذاك فقط يمكن أن تعد الامة المصرية من الامم المستقلة الراقية مهما كان نظامها السياسي لأن الآداب معيار رقي الامة وأن أمة بلغت مابلغته الامة المصرية من الرقي والنضوج المبكر البدري لجديرة بآداب راقية فنية مستقلة خاصة بها .

هذا هو الواجب المقدس الذي نترسمه ونؤمل أن نؤدي بعض مايقتضيه هذا الواجب ونظن أن لايوجد من يدعي علينا أن روايانا قصصية كانت أو مرسحية مقتبسة عن روايات أجنبية أو ان رواية غريبة

أوحت لنا بضعة مناظر أو ساعدتنا على تكييف أشخاصنا أو ان هؤلاء الاشخاص لا وجود لهم في الامة المصرية فان ميلي الغريزي للتحليل يدفعني الى التغلغل في درس اعماق حياتنا الداخلية النفسانية لا صورها بأمانة واخلاص كما هي لا كما يجب ان تكون ولهذا السبب وحده احجم بعض اصحاب الفرق عن تمثيل رواية من رواياتي لانهم وجدوها حقيقية مؤلمة قاسية اذ لا يصح كما يقولون اظهار كل الحقائق

وأنا لا اتعرض الآن لدرس هذا الموضوع الدقيق لمعرفة ان كانوا على خطأ أو صواب فسنخصص لدرسه فصلا مطولا في كتابنا « ملاحظات ونظرات فنية » ولكنا نبدي هنا رأينا ونتركه بدون تعزيز فاننا نرى أن واجب الفني تصوير الفن اينما وجد لان الفن يجب أن يكون مستقلا ومحرراً من كل قيد والفن كما سبق وقلنا في موضع آخر لا يكون فقط في تصوير الجمال والكمال بل قد يكون أيضاً في تصوير عيوب الطبيعة ونقائص المجتمع البشري لان الفن في عرفنا هو القدرة على ايجاد احساس راقي قوي يتسرب بلذة مثملة خلابة الى قلوبنا ويستولي علينا نفوسنا فيهذبها ولا شيء خليق بايجاد هذا الاحساس سوى الحقيقة لانها تهز اليافاً دقيقة في أعماق قلوبنا وعلى هذا الاعتبار تكون كل حقيقة جديرة بان تعرض وتصور وتقال

— ٥ —

كنا نود أن نخصص فصلا مثل هذه الفصول لدرس لغة التأثر والانفعال التي أخذ كتاب الناشئة الجديدة يستخدمونها في كتاباتهم تلك

اللغة الحية المرنة الشفوفة باختيار الكلمات الفنية وابتكار العبارت الجديدة التي تؤدي المعنى بقوة ودقة وآخر في تفسير معنى الفن وتعريف وظيفته الادبية والاخلاقية والاجتماعية وشرح قواعده وآخر في درس صفة ادب بلغة ومستقبل الانواع التي ابتدأت ندخل فيه لولا أنا رأينا أن هذه المقدمة اصبحت طويلة وكادت تكون ملة ولذلك سنبقى تتمة هذا الدرس لكتابنا « نظرات وملاحظات فنية » الذي ننشره قريباً .

وقد حذونا حذو بلزاك شيخ الروائيين الفرنسيين في مؤلفاته الموسومة بالانسانية الممثلة « La Comédie Humaine » بمعنى اننا قد نتتبع في قصصنا المقبلة حياة الاشخاص الذين صورنا صفحة من حياتهم في هذه القصص او نأتي على صفحة اخرى من حياتهم لاننا لاحظنا ان هذه الطريقة تساعدنا كثيراً في تصوير حياتنا الاجتماعية ولما كان لا يتسنى للكاتب ان يدرس النفوس البشرية الا في القصص الطويلة فسنضع روايات مصرية تامة تصور قطعة عامة من الحياة المصرية وقد الفنا فعلا رواية من هذا النوع دعوناها « بين الحب والفن » حللنا فيها جزئيات مشاعر كاتب مصري طامح الى المجد مع تصوير الوسط الفني المصري .

وقد توخينا تصوير الحياة الشرقية كما هي بلا تفسير او مغالاة معتمدين على كلمات التورية للتعبير عن مقاصدنا الخفية في المواقف الحرجة الدقيقة وفي بعض الاحيان على الفاظ ملهمة توحي الى القارئ المعنى الذي نقصده ولم نجاهر به بحيث اننا جعلنا عباراتنا في حالة من الغموض يستعصي معناها على الفتيات الساذجات وهذه الطريقة هي التي يتخذها كبار كتاب

فرنسا الذين ارتأوا وجوب تصوير الحياة كما هي لا كما يجب ان تكون فان موبسان مثلا قد هبط الى اسفل دركات المستنقعات الوبيئة القذرة ونجح في تصويرها بدون ان يهين الحقيقة .

ويجب ان اعترف ان مسألة اللغة التى يجب ان تكتب بها المحادثات الثنائية « dialogues » قد اجهدت فكري واتعبتني كثيرا قبل ان توصلت الى ايجاد حل لها واللغة مشكلة عويصة تعترض الكاتب الفني لان الفرق عظيم جداً بين اللغة التى نكتب بها واللغة التي نتكلمها فان استعملنا الاولى ظهرت متكلفة متنافرة شاذة بعيدة عن الفن الذي يتطلب المسحة الحقيقية والدقة في تصوير الالوان المحلية وان استعملنا الثانية قضينا على اللغة العربية وحكمنا على اخراج النوع القصصي او المرسحى من آدابنا ونحن نريد ان يكون هذا النوع من اقوى واعظم اركان الآداب المصرية كما هو في البلاد الغربية لانه اوقع أثراً في النفس ويساعد الكاتب على درس كل الموضوعات والمسائل من علمية وفلسفية واجتماعية وأخلاقية ونفسية .

فكيف نوفق اذاً بين لغة الاشخاص التى يتكلمون بها في الحياة وبين اللغة الادبية الراقية التى يجب أن تدون في المؤلفات ونذكر هنا للدلالة على عظم هذا المشكل أن صديقنا المأسوف عليه محمد بك تيمور الثوروي الفني ارتأى بعد أمعان التفكير وجوب وضع الروايات القصصية المرسحية باللغة العامية ليُسم ادبنا بشخصيتنا المصرية ولتكون الروايات قريبة الى الفن والحقيقة خالية من التكلف والجمود

ونحن مع أعجابنا الشديد بفقيدنا العزيز لا يمكننا الموافقة على هذه الفكرة

المتطرفة الخطيرة فنحن ممن يتعصبون للغة العربية ولا نرغب أن يستقل الادب المصري عن الادب العربي ولكن يكون فقط للاول صفة خاصة به تميزه عن الثاني ويطلق له حرية التطور والرقي

وحتى نوفق بين الفن واللغة ارتأينا أن تكتب المحادثات الثنائيه بلغة عربية متوسطة خالية من التراكيب اللغوية وقد يتخللها احياناً بعض الفاظ عامية حتى لا يظهر عليها شيء من الجمود أو التكلف ونطليها بالمسحة المصرية والالوان المحلية وقد تؤدي كلمة عامية معنى لا تؤديه جملة عربية برمتها

أما اذا كانت المحادثات قصيرة ومقتضبة فيحسن منا ان ننقلها كما هي كما تصدر من الاشخاص المختلفي النحل والاجناس بالفاظهم العامية ورطانتهم الاعجمية ولا نظن انه يقوم من يعترض علينا فان الكتاب الفرنسيين انفسهم الذين يعبدون لغتهم ويحافظون عليها اكثر من محافظتنا على لغتنا كثيرا مايوردون في مؤلفاتهم القيمة التراكيب الاعجمية والفاظ الالمان والانجليز وعامة الفرنسيين انفسهم حال تكلمهم لغتهم ولم نر أحداً منهم قام يظهر فساد هذه الخطة او يدعي اهانتها للغة

فغايتنا الوحيدة من تأليف القصص والروايات العصرية المصرية ان نساعد على ايجاد ادب مصري مصري خاص بنا وموسوم بطابع شخصيتنا واخلاقنا يتفق مع ما بلغناه من الرقي والنضوج المبكر البدري .

فهل نحن محققون للغاية التي نرمي اليها ؟ هذا ما سيحكم به الجمهور المصري ونؤمل ان يكون حكمه منزها ومشجعا ؟

ديسمبر سنة ١٩٢١ عيسى عبيد

احسان هانم

— ١ —

احسان هانم جالسة الى مكتبتها غامرة جبينها بين راحتيها ومطلقة لمخيلتها العنان . هي في الخامسة والعشرين منسجمة القد تعلو وجهها القمحي المتلي ، حرارة وحياة سيمة كآبة عميقة هادئة وقد عصبت رأسها الجميل بمنديل احمر حريري موشى بالتر تر الابيض المتلألي ، شردت من حفافيه بعض جدائل رفيعة فانسدلت بلطف من لمتها حتى استقرت بجلال ودلال على صدغيها ثم رفعت رأسها واذ بعينيها السوداويتين ممتلئتين بدموع مالبثت ان انحدرت ببطي ، على صدغيها ثم تناولت قلما وخطت هذه الرسالة

عزيزتي دولت

تستغربين يادولت كيف طلقني مع انك تعرفيني مخلصة وقد تتساءلين عما عساها تكون تلك الاسباب الخفيه التي ادت الى هذه الفاجعة ولكي تدركيها يجب ان تعرفي المؤثرات القديمة والحديثة التي كونت نفسيتي .

اتتذكرين ياعزيزتي كيف كنا في فجر شبابنا الاول نطالع معاً روايات الكتاب الوجدانيين الخياليين الذين تناسوا حقائق الحياة المرة القاسية فجنحوا الى الخيال الساذج الجميل فخلق بهم فوق هذا العالم الشقي . لقد كنا نطالع معاً بشغف جنوني رواياتهم المملوءة باقاصيص الحب الذي طهروه من ادران المادة وجعلوه رمزاً للسعادة وعنواناً للمثل الاعلى . . . فاوحت لي تلك

الروايات الوجدانية ان الاسرة المشادة على الحب تظل قوية راسخة امام عاصفات الحياة لان اسباب الطلاق وتعدد الزوجات وكل العيوب التي تنخر وتهدم الاسرة المصرية ترجع كلها بدون استثناء الى عدم الثقة والحب بين الزوجين

لذلك كنت اتمنى يادودو ان اتزوج من رجل يحبني واحبه لاكون عاملا قويا في حياته اتأثر بما يتأثر به واتألم مما يؤلمه ولقد كنت أنت أيضا تتمنين معي ذلك . اتتذكرين يادودو ! فقد كنت تقولين وعلى شفتيك الحمراويتين الجميلتين الابتسامة الطاهرة التي اعهدها فيك عندما تثور عواملك الشريفة ابتسامة الاحتقار والازدراء : « اني لا اخجل ياحسان ان اطلق اسم الزوجة على امرأة تعيش مع زوجها بدون الثقة المتبادلة والعواطف المشتركة »

وفي الحقيقة يا دودو ان تلك المرأة المنكودة الحظ لا تكون زوجة ولا تعتبر نفسها كذلك لانها اليوم مع زوجها وغدا تصبح غريبة عنه اليوم في هذا المنزل وغدا تطرد منه . فهذا التخوف اللائم من الطلاق يقضي على كل اثر للثقة والحب ويربي في نفسها استعداداً مخجلاً خطراً اذ يصبح كل همها اغتنام الفرص واعداد العدة للمستقبل حينما تطلق فتسلخ جلده بطلباتها المتوالية الجنونية .

ثم ماذا تحمل المرأة المطلقة الى زوجها الجديد ؟ . اليس قلباً محطماً مريضاً مفعماً بالحقد المكتسب من طلاقها الاول ؟ الا تعيش معه كأنها غريبة عنه وفي منزل قد تخرج منه من ساعة لاخرى ؟ أيمكن لهذه المرأة أن تحب زوجها ؟ أوهل يمكن الزوج ان يحبها وهو يراها دائماً مقطبة الجبين سيئة

الظن غيورة مبذرة لا شفقة لها ولا حنان ؛ أولا يحمله هذا الخلق على هجر المنزل والالتجاء ليل نهار الى القهاوي والملاهي تعزية لنفسه المتضجرة المتضعضعة او يدفعه الى محاولة ايجاد السعادة المنزلية في زواج آخر فيطلقها أو يتزوج عليها ؛ اليست هذه أسباب لهدم كيان الاسرة المصرية التي هي صورة مصغرة للامة ؟

اعتدت يادولت ان أنظر الى العالم منذ حداثة سني بعين الحقيقة المجردة فهالني ما رأيت من ضروب الشقاء الذي يجره الزواج على بنات جنسي فهممت ان لا اتزوج الا ممن احبه لأضمن سعادتي المنزلية آه ! كم مكثت انتظر ذاك الحب الذي يفعم النفس سعادة ولذة ! كم لبثت ابحث عن ذاك الشاب الذي رسمته لي مخيلتي المضطربة المجروحة ولكن حالت تقاليدنا الشرقية المقيدة دون اختلاط الجنسين فلم اعثر على من أحبه ويحبني وخطبني وقتئذ احمد افندي الى أبي فلم يسعني ان ارفض فتزوجته مرغمة

— ٣ —

اني أراك الآن يادودو وقد أخذك الغضب تتهدجين قائلة : « كان يجب أن ترفضي يا احسان فلا توجد قوة على الارض ترغم المرأة وتتغلب على ارادتها » آه ياعزيزتي دودو انك تجهلين استبداد رب الاسرة وغلظته لان والدك توفى وأنت صغيرة فربتك نينتك على « الدلع » وتركتك « على كيفك » . اما انا فمن تربين على الطاعة والخضوع الوراثي . والدتي تضطرب أمام والدي لشدة خوفها من قسوته لا تأكل الا اذا فرغ من الطعام ولا

تنام الا اذا دخل المنزل ولا يدعوها برقة وعطف بل بازدراء كما يفعل مع خادمة حقيرة ولما يريد ان يتجمل مهما يدعوها بياهانم وهي لا تجيبه الا بكلمة أفندم أو حاضر يابيه أو طيب ياسيدي

هذا هو والدي يادودو الساذجة الصغيرة وهو على شاكلة عدد عظيم من رجالنا لا يعرفون معنى للحب تلك الشعلة السماوية التي تطهر الانسانية من ادارنها ذلك العماد المقدس المتين الذي تقام عليه الاسرة نعم انهم يجهلون الحب الشريف ويعتقدون ان المرأة وجدت متاعاً لهم ولم أذكر يا عزيزتي ان والدي قبلني يوماً او داعبني كما يفعل الآباء مع فتياتهم بل كان يتظاهر أمامي دائماً بمظهر الجبار العنيف حتى أهابه وأحترمه على زعمه ولكني كنت اخاف منه ولا أحبه ان لم أقل أني كنت ابغضه فهل كان في استطاعتي ان أقاوم رغبة رجل مثله يضطرب أمامه الجميع ؛ فلو تجاسرت وجاهرت بفكري لعدني عاهرة ساقطة ولقتلني في الحال لان الحب في عرفهم مرادف للرذيلة والبغاء .

آه كم مكثت أنا ونينه نبكي سراً على شقاوتي والمسكينة لا تجسر على الدفاع عن سعادتي اذ أصبحت بلا شخصية او ارادة ولقد كانت في الواقع تجهل أسباب آلامي ولم تكن تشاطرني خوفي الغامض الوهمي في عرفها الا بدافع عاطفة الامومة وكثيراً ما حاولت ان تعزيني بأقوالها الشافة عن جهلها التام بنفسيتنا المصرية .

وبتعيطي ليه يابنتي مش تجوزنا كلنا كده . . والحمد لله عشت مستورة ويه ابوك ومبسوطه أربعه وعشرين قيراط

فهي تتوهم انها سعيدة مع ان الدمع لا ينفتي، ينساب على وجهها الحزين وطالما قرأت على محياها الجميل آلام الغيرة القتالة التي كانت تثيرها في نفسها ضرتها الشابة الجديدة ولما تجاسرت ان ابدي لها ملاحظاتي وافهمها انها غير سعيدة كما تتوهم اجابتني بلهجة لا أدري كيف أعبر عنها لهجة تشف عن الذل والخضوع الوراثي الذي قتل فيها كل نزعة ثورية ضد نظام حياتها الحالي « معاش بزيادة يكون الراجل زينة البيت »

اني لنساء العهد القديم ان يلمحن بنفسية فتيات العهد الجديد تلك النفسية الوثابة الى الحرية الثائرة على النظام القديم الذي يقضي على سعادة المرأة واستقلالها ؛ انى لهن ان يعرفن مثلنا الاعلى الذي هو نتيجة رقي تربيتنا وسمو مداركنا ورقة شعورنا وخلاصة تطورنا ونهضتنا .

تألمت يادودو وثارت عواملي ولكني تمكنت ان اتغلب على ميولي النافرة الثائرة معزية نفسي بانني ساعلمه ليكون الشاب الذي اريده وابث فيه مبادئي وتعاليمي واسيره حسب الخطة التي ارسمها له لتضمن سعادتنا الزوجية الا أنني أخطأت في تقديري فقد وجدت عواطفه قد سممتها بائعات الهوى اللواتي يلتجئ اليهن شبابنا في سن الاحتلام

إني المس هنا يادولت مرضاً من اعظم وأخطر امراضنا الاجتماعية فان الشاب المصري حينما يستيقظ قلبه البدري البكر يهب مطالبا بمخلوقة طاهرة مثله تشاطره عواطفه الفياضة المضطربة الغامضة ولما لا يجدها بين فتيات اسراتنا اذ الحجاب وتقاليدنا الشرقية تحول بينه وبين الحب الشريف يضطر رغما عنه الى الالتجاء الى بائعات الهوى . فعوضا عن ان يرتشف من مياه

ذلك النهر العذب يروي ظمأه من مياه تلك المستنقعات الموبوءة المسمومة فتسمم عواطفه الاحساسية وتوقظ فيه الحواس فبدلا من ان يترقي شعوره ويصل به الى الكمال الانساني بعامل الحب العذري الطاهر يحط الى المرتبة الحيوانية . فهذا هو السبب في ان رجالنا لا يحبوننا الا ذلك الحب الحواسي الحيواني الذي لا تمازجه مسحة احساسية او طلاوة شعرية وذلك هو السر في اعتبارهم الحب رذيلة من الرذائل القبيحة المذمومة

وجدت عواطف زوجي متسممة لا يعرف من السعادة المنزلية الا تلك اللذة الحواسية وعبثا حاولت اقصائه عن ذلك لاربي في نفسه الشعور الاحساسي الحي وعبثا أردت افهامه انني مخلوق عاقل له غاية في الحياة اسمى وأرقى من الغاية التي يتوهمها فانه ابى على ذلك وأصر ان لا يرى في الا العوبة تذكي دماء الرجولة فنتج من ذلك النفور المتبادل الذي أدى الى الطلاق .

— ٣ —

قابلت طلاقي من زوجي الاول بدون تأثر قوي بل انى شعرت بعاطفة سرور مبهمة تمازج انقباض نفسي ولعل سببها تفاؤلنا الشرقي الذي طالما كان السبب في تحمل النساء الشرقيات بشجاعة وأناة ضربات الطلاق المؤلمة القتالة فان المستقبل قد بدا لي مزدانا بالالوان الارجوانية المتماوجة الخلابة

ويجب ان اعترف لك يا دودو بحقيقة مخجلة . فان حاجة نفسي للحب الاحساسي اخذت تضعف شيئا فشيئا مع الايام وكنت اشعر احيانا بهزات عطيفة مشعلة لذيذة تجتاح كل جسمي . . . هل يكون ذلك نتيجة نضوج

الطبيعة ؟ ام حكم العادة التي اكتسبتها اثناء حياتي الزوجية الاولى ؟ ام تأثير العدوى الحواسية التي تسربت الى جسمي من زوجي وسممت عواطفي . . لا ادري وغاية ما أستطيع أن أقوله أن امرأة جديدة لا أعرفها امرأة تخيفني حلت محل تلك الفتاة الوجدانية التي عرفتها

اقترنت بعد سنة بمحمد بك فوجدته كزوجي الاول من جمود الاحساس وتيقظ الحواس فلم اتألم كثيراً لاني لم أعد اطلب من الزوج اكثر من ذلك

احبني محمد بك حباً صادقاً ـ الحب الذي اعتاده ـ مدة سنة كاملة كنت في خلالها سعيدة لا تشوب صفاء حياتي الا غيرته الغبية الحمقاء التي حرمتني زيارة صديقاتي وخروجي من المنزل حتى الى المحال التجارية لشراء حاجياتي التي كان يقضيها لي بنفسه وقد كنت اغتفر له حبسي وأنسبه لشدة حبه لي وحرصه على سعادتي الا أن عدم خروجي الى الهواء الطلق وانحصاري بين جدران المنزل أثر تأثيراً سيئاً في صحتي فأصبحت أشعر بضجر قتال ووجع في قسم من الرأس وحاجة غامضة الى البكاء تلك الاعراض التي ينسبها الطب الحديث الى مرض النروستانيا العصري وتظنها نساؤنا الجاهلات تأثير فعل الجان فيحاولن مداواتها بواسطة الزار .

كنت أتحمل كل ذلك لأنه يحبني ولكن حبه لم يدم ككل حب عماده الحواس خال من المرمى الشريف السامي فما لبث أن عاد الى سيرته الأولى التي اعتادها شاباً فأصبح لا يؤوب الى المنزل الا فاقد الرشد سكراً عند طلوع الفجر

لا يمكنك ان تعرفي بادودو كم تألمت وانا وحدي في البيت لا سمير لي الا غطيط الخادمة التي يأخذها النعاس رغما عنها وهي تحاول تسليتي وتعزيتي في مصابي لقد ادركت لاول مرة في حياتي كيف تدوس المرأة المصرية على شرفها وسمعة أسرتها ارضاءً لتعزية نفسها المعذبة المتلجة الدامية . . . عرفت تلك الازمة الخطرة الهائلة التي تنتابها فتشل حركة قواها العقلية وتقتل ارادتها وتجعلها كفاقدة الرشد ترتكب افظع الجرائم الاجتماعية دون ان تدرك معنى اعمالها لانها تكون مسيرة بلا قوة او ارادة لسلطان تلك الازمة العمياء

فكانت هذه ضربة قاضية ولدت في نفسي عوامل الانتقام . نعم اردت ان انتقم من ذلك الرجل الذي ضحيت له كل شيء حتى سعادتي وصحتي وجمالي وبذلت كل ما في قدرتي لارضائه واسعاده وإني لا أدري كيف لم تدفعني تلك الازمة الى ان ارتمي في أحضان أول رجل التقي به مصادفة على قارعة الطريق يرمقني بنظرة حب او يتكلف الغرام كما تفعل كثيرات من سيداتنا الشقيات المهجورات مثلي . هل لأن الأزمة ليست قوية حادة كما تلوها من عوامل الغيرة التي لا تأتي الا عن طريق الحب وانا لم اكن احب زوجي ؟ اولأن عواطفي الشريفة ومبادئي الراقية اوسراب المثل الاعلى الذي كنت اطمح اليه في حياتي الزوجية قد حفظني من السقوط والاستسلام لعوامل تلك الازمة المخجلة الجنونية ؟

اذاً كيف انتقم منه وبماذا ابقيه في البيت وأجعله يحترم المنزل ؟

كيف اعيد اليه حبه المحتضر المتلاشي ؟ فاوجدت طريقة تتفق مع

كرامتي طريقة ساذجة طاهرة كنفسي التي يعلم الله انه لم تدنسها الحياة بدنس حتى الآن.

فسولت لي سذاجتي ان اخالف أوامره. فأخذت أكثر من الخروج وزيارة صديقاتي موعزة الى خادمتي امينة أن تدس له ذلك دساً عند مجيئه ولكن بدلا من ان تحمي الغيرة حبه المحتضر كما كنت اتوقع اثارت فيه غضبه. فتشاجرنا ولما كنت لا أملك زمام نفسي الثائر فأغلظت له في القول فصفعني فسبيته فطلقني ثلاثا.

والآن يادودو الصغيرة اشعر باني امرأة شقية لم تكد تبلغ السادسة والعشرين حتى تهدمت كل آمالها في الحياة ومات تفاؤلها الشرقي وحل محله تشاؤم سام قتال فماذا أفعل؟ هل اؤمل ان اتزوج ثالث مرة؟ وهل الزوج الجديد سيكون افضل ممن سبقه؟ وبماذا اسكن تلك العوامل التي تتسرب بقوة هائلة في جسمي؟ آه يا دودو اني أشعر بان يداً قوية تدفعني الى هوة عميقة احاول عبثاً الابتعاد عنها.. فاغيثيني.. انصحيني.. لاني في أشد الحاجة الى النصيحة والعزاء.

سبتمبر سنة ١٩٢١

حبيبتك احسان

— ١ —

انا لك

— عريسها كويس ياماري ؟

مش قد كده ياماما بياخد سبعة جنيه في الكريدي ليونيه ولكنه أحسن منها الف مرة على كل حال . . . هي فيها ايه كويس . . .

قالت الفتاة ذلك مدفوعة بعامل الغيرة تلك الغيرة القوية المؤلمة القتالة التي تشعر بها كل فتاة عند ما تعلم زواج احدى صديقاتها اللواتى هن في عرفها دونها جمالاً وأدباً ولطفاً . وجاشت في صدر الام عوامل مؤلمة محزنة متضاربة عوامل الحسد لرؤيتها فتيات الغير تقترن ولا يقدم أحد من الشبان على فتاتها مع انها تراها في نظرها أجمل منهن جميعاً . فكان أمل هذه المرأة كأمل كل أم في الوجود وهو أن ترى ابنتها مقترنة بشاب مقتدر بحبها ولم يكن للفتاة بائنة لان أباها موظف صغير في احدى المحال التجارية لا يكاد مرتبه الضئيل يكفي حاجيات المنزل الاساسية ولما كانت الام ترى شبان اليوم ينظرون الى مال الفتاة قبل جمالها أرادت ان تخدعهم بمظهر الغنى وبما ان كسب زوجها لا يساعدها على ذلك أخذت تقتصد اقتصاداً جنونياً في مصروفات الغذاء لتشتري الملابس الفاخرة والاثاث الثمين والحلوى والمشروبات التي تقدم يوم الاستقبال للمحافظة على مقامهم المزعوم بين الناس فتمكنت بفضل هذه الطريقة أن تنرش بيتهم على الطراز المصري

الراقي وتشتري لابنتها بيانو كانت تعزف عليه الفتاة بعض الادوار الافرنجية التي تعلمتها في مدرسة الراهبات ثم استبدلتها بعد ذلك بالالحان الكشكشية والادوار العامية الشائعة وقتئذ كزوروني في السنة مرة . . . وانا لك وانت لي . . . وعرفت اخرتها ويه حبي . . . لانها وجدت فيها طلاوة عصرية .

فبينما كان ظاهر البيت الخارجي يدل على الترف والسعة في الحياة كان داخله يدل على الفقر المدقع فالطعام وهو عنصر الحياة لم يعد مغذيا بسبب اقتصاد الام الفاحش في مواد الغذاء واستبدال السمن بالزيت واللحومات بالمأكولات الصيامية وغيرها فلم تمض عدة سنوات حتى ضعف دم الفتاة الضعيفة البنية وبدت عليها أعراض الانيميا فتلونت بشرتها الناصعة النقية بسمة شمعية ذابلة كانت تخفيها بمسحوق الاحمر والابيض ثم انتابها الضجر ذاك الضجر الاسود الخانق القتال الذي ينتاب احياناً الفتيان والفتيات في عهد الشباب فيحملهم على الزواج لشعورهم القوي بوجوب الانتقال من حالتهم الحاضرة الكئيبة الشقية الى حالة أخرى تبدو لهم مزدانة بالالوان الجميلة الزاهية .

فلما شعرت ماري بأنها غير سعيدة في حياتها الحالية توهمت ان السعادة توجد في الحياة الزوجية بما كانت تراه من سيادة المرأة المتزوجة على المنزل وقبضها على مقاليد الامور ثم قوى خيالها الشرقي فيها هذا الوهم بما كان يصوره لها من جمال زوجها المقبل وغناه الوافر وقصوره الشامخة وعرباته الفاخرة التي تجرها الجياد السوداء المطهمة وقوى هذا الوهم اشياء فاشياء حتى أصبحت تشعر بحاجة شديدة الى تحقيقه فلم تكن مدفوعة الى الزواج

بعوامل الطبيعة فان طبيعتها هادئة باردة بحكم الوراثة عن أمها وجاءت الانيميا فقضت على البقية الباقية من سورة الشباب ولكنها كانت مدفوعة اليه بحاجتها الشديدة الى السعادة وبذلك العامل القوي الذي ينمو ويقوى في الفتاة كلما كبرت وأشرفت على سن « العوانس » فان كبرياء الفتاة الطبيعي يأبى ان يقال عنها عانس لم يرغب فيها أحد من الشبان لانها غير جميلة أو لطيفة أو جذابة ثم ان ماري كانت تشعر بغيرة حقيقية شديدة كلما سمعت بزواج احدى صديقاتها اللواتي هن دونها جمالاً ولطفاً ولذلك كانت المسكينة تتمنى ان تتزوج لكي تستريح من آلام الغيرة السامة القتالة

فدمدمت الام وسط ما كان يخالجها من الهموم والافكار هذه الكلمات الدالة على شدة فراغ صبرها من انتظار العريس : البنات كلها بتتجوز انا عارفه بس ليه بختك كده يابنتي . . . فلم تجب الفتاة بشيء واستطرت الام تقول منقادة بتلك الفكرة الثابتة التي ولدت في ذهنيتها شبه مونومانيا كادت تسم عقلها : شبان اليوم يحبوا البلف . . . عايزين اللي تبصلهم وتضحكلهم حتى يفتكروا انها بتحبهم . . . شفتي ازاي أليس . . .

وكانت ماري فتاة خجولا اكسبتها التربية الدينية التي تلقتها في مدرسة الراهبات قسطا وافرا من الحياء ذلك الحياء العذري الذي كاد يتقلص عن وجنات فتياتنا اللواتي سممتهن الحضارة المصرية وقضت تربيتها على خلاعتها النسائية تلك الخلاعة المخجلة التي انتشرت انتشارا فظيعا بين الفتيات المصريات فاذا خرجت الى الطنف ورأت شابا في الطريق او في احدى نوافذ الجيران ينظر لها فانها لاتجيبه على نظرته بابتسامة كما تفعل البعض من بنات جنسها

ولكنها تسرع الى الدخول وتغلق باب الطنف وراءها واذا سارت وتبعها شاب منقادا بقوي سحرها فانها تستمر في سيرها بدون ان تلتفت اليه كأنها لاتشعر ولاتبالي به فيحمله الخجل او الاعياء على تركها وشأنها واذا زارهم شاب وحاول ان يفتح باب الغراميات فانها تقطع حديثه بلطف بتغييرها موضوع الحديث مثلا أو تترك مكانها بحجة قضاء عمل ماولذا فكان لرواء وجهها الناصع الابيض طراوة ورخاوة كالتي نشاهدها كثيرا في نبات الظل الذى يعيش بعيدا عن حرارة الشمس والمؤثرات الجوية

فما كادت تسمع تأنيب أمها الخفي حتى انجرح احساسها الشريف فاجابتها برنة عتاب :

— وانت عايزاني ياماما أعمل زي اليس . . . دي بتخلي عشرين واحد يفتكروا أنها بتحبهم وهي ماتحبش حد منهم

هي دي اللي تعرف تجوز الايام دي . . . وانت ان ما كنتيش تقابلي فؤاد افندي بنشوفه ما كان أخدك من بدري وزادت على ذلك قولها

— الخشو والادب ده ماينفعش في الايام دي

وكانت الفتاة تعلم أن فؤاد يعبدها عبادة ولكنه لم يقدم على الاعتراف لها بحبه ولم يطلبها من أهلها لانها لم تشجعه على ذلك ولكونه من فئة هؤلاء الرجال الاحساسيين الذين يخجلون من التعبير عن عواطفهم ويتركونها تتمشى وتسري في اعماق نفوسهم وكانت تدرك جيداً انه يمكنها بشيء من الخلاعة التي تحسن المرأة اتقانها دائماً لانها غريزية في نفسها ان تجعله يترامي على اقدامها طالباً يدها ولكنها لم تفعل لان فؤاد ليس بالشاب الجميل الغني الذى

صوره لها خيالها . ولم تكن تشعر نحوه مع ذلك باقل ميل مع وفرة ادبه وكرم اخلاقه والسبب راجع الى طبيعة الفتاة الباردة الهادئة :

— وهمل ايه يا ماما اذا كنت ماحبوش

قالت ماري ذلك بشيء من الذل واليأس كانها معترفة بخطأها ولكنها تود ان توجد عذراً يشفع لها وخوفاً من سماع تأنيب والدتها المعتاد « ويجرى ايه يا عبيطه . . . الحب يجي على مهله بعد الجواز » قامت الى البيانو تعزف هذا الدور الاحساسي الجميل « زروني في السنة مرة » وظلت أمها بقربها تنظر بسرور وأعجاب الى تقاطيعها الفتانة متأملة مفكرة باحثة عن سعادة ابنتها في الافق المترامي هناك بين طيات المستقبل المبهم الغامض

— ٢ —

أرادت الست كريمة أن تزوج فتاتها من فؤاد لانها وجدته من فئة هؤلاء الرجال الذين يحبون بصدق واخلاص ولا يعرفون كيف يعبرون عن عواطفهم هؤلاء الرجال الاحساسين المعرضين لشقاء الحب . وارتها خبرتها الطويلة ان الشاب المقتدر لا يتزوج من فتاة لا بائنة لها الا اذا كان مدفوعاً بعامل الحب القوى وبما ان اغلب شبابنا قد سممتهم المدنية العصرية وقتلت فيهم العاطفة الوجدانية أصبحوا لا ينظروا في الزواج الا الى محض مصلحتهم المادية فأخذت تسعى جهد طاقتها في نصح ابنتها وحملها على القبول وتحول هذا النصح أمام عناد الفتاة الى الضغط والشدة فاضطرت ماري اخيراً الى الاذعان قسراً لتضع حداً للمناقشات الحادة الشديدة التي

كانت تجري يومياً بينها وبين والدتها بشأن الزواج ولتستريح من كلمات تقريعها الفظة المؤلمة الدائمة .

وحاولت الفتاة أن تسكن بواسطة التفكير الهها السري الذي كان يتمشى في اعماق صدرها

وماذا يهم ! اليس التزوج من رجل يحبني ولا احبه خيراً من التزوج من احبه ولا يحبني .. ففي الحالة الاولى يسير على حسب اوامري ويخضع لرغبتي وفي الحالة الثانية اسير انا على حسب مشيئته واخضع لقسوته واستبداده فأشقى وأتعذب .

وما زالت تسكن الهها بمثل هذه الافكار وتحاول ان تقنع نفسها حتى اصبحت ترى مصلحتها الحقيقية في هذا الزواج والامر المدهش أن الفتاة لم تهزها مسكة من الشفقة أو الحنان على ذلك الشاب المسكين المتيم بحبها ولم تكن للشفقة أو الميل أقل علاقة برغبتها الجديدة في الزواج به

فظلت ماري تنتظر زيارة فؤاد بفارغ صبر ولكنه لم يحضر لأنه انقطع عن زيارتهم عند ما ادرك أنها لا تميل اليه وربما أراد بهذا البعد أن ينسى حبها أو أن يؤثر الفراق في قلبها الجامد البارد . ولما كانت تعلم أنه يختلف كل يوم أحد الى كنيسة الشوام في الفجالة ذهبت اليها لتتمكن من تمثيل أول دور من أدوار الخلاعة النسائية . فأخذت مقعداً في القسم الخاص بالسيدات وما كادت تجلس حتى أخذت تنظر الى قسم الرجال وتتصفح الوجوه فرأت فؤاد يرنو اليها رنوة هيام منجذب فابتسمت ابتسامة لذيذة وحيته باحناء رأسها .

فكاد يطير الشاب لشدة فرحه وتسأل عن أسباب هـذا الانقلاب الغريب وهي التي كانت تراه في الشـارع وتتظاهر بانها لم تره كي لا تحييه ولما لم يدرك السبب نسبه الى تأثير البعد أو الثقل كما تقول العامة

وظلت الفتاة تتلفت اليه خلسة بحذق ورياء أثناء القداس ولما انتهت الصلاة تماهلت حتى يخرج الناس وتتسنى لها مخاطبته وقد كان هو ينتظرها عند الباب على أحر من الجمر وما كادت تراه حتى تقدمت نحوه بدلال وخلاعة قائلة برقة سحرية .

— بونجور مسيو فؤاد

— بونجور مدموازيل ازاي حضرتك . . . ازاي ماما انا مشتاقالكم قوي والله .

إيه ! ان كنت مشتاقلنا كنت تسأل علينا . . .

فأخذ الشاب يعتذر لها بحرارة بكثرة أشغاله التي عاقته عن زيارتهما ثم وعدها انه سيزورها يوم الاثنين القادم وهو يوم استقبالها

— أهلا وسهلا تتشرف

ولما لم يجد شيئاً آخر يقوله مدّ لها يده مصافحاً فتناولتها وضغطت عليها برقة ثامة .

— ٣ —

جلست ماري الى البيانو تعزف هذا الدور الجديد « انا لك وانت ليه » وقد ارتدت ثوباً أبيضاً قصيراً يشف عن خطوطها وتكوينها الخلاب

وتركت جدائل شعرها مسترسلة على رقبتها ومنكبيها مع أنها جاوزت السن التي لا يحق فيها للفتاة هذا الضرب من ضروب الزينة وكان من رآها ذاك اليوم وشاهد قصر قامتها ونحافة جسمها المنسجم وضؤولة اعضائها لا يصدق أبداً أنها في الثالثة والعشرين

وانها لكذلك واذا بقرع خفيف على الباب فاسرعت الام الى فتحه وكان القادم فؤاد العبداوي نفسه وهو شاب في الخامسة والعشرين تلوح على وجهه القمحي أمارات الكآبة الدالة على مزاجه السوداوي الحزين وهو غير جميل لم تهبه الطبيعة شيئاً من تلك القوى السحرية التي تسعد أصحابها في هذا الوجود فكان كلما أحب فتاة أخفى عواطفه وجعلها تتمشى في قلبه حتى تختنق فتحتضر فتموت مخافة اظهارها لمن يحبها

وكان رأى ماري ووالدتها الست كريمه لاول مرة في ليلة أحياها صديقه مشيل أسعد السوري لمناسبة عيد رأس السنة وكان قد دعى اليها بعض معارفه من الاسرات والافراد للعب الورق وما كاد يرى الفتاة حتى مال اليها واخذ يتتبع حركاتها لمعرفة اخلاقها وكان كلما تعمق في درس شخصيتها زاد اعجابه بها فقد اكتشف فيها مسحة من جلال العفاف وخجل العذارى لم يجدها في غيرها من الفتيات ولم يرها تشاغل احدا من الشبان بواسطة النظرات الناعسة والابتسامات الغرامية فطلب من صديقه ان يعرفه بها فاعتذر من عدم امكانه ذلك بحجة ان عادة التعارف لم تنتشر كثيرا عند الشرقيين وقد تكون موضع القيل والقال لدى الموجودين ولكنه نصحه ان يتعرف بوالدتها الست كريمة بطريقة طبيعية وذلك بان يجلس بجوارها امام منضدة

اللعب وساعده صديقه فعلا على ايجاد مقعد له بجانب الست كريمة فاضطر فؤاد أثناء اللعب ان يخاطب رفيقته . وكانت السيدة ترغب ان تعرف بالشبان الغرباء وتدعوهم الى زيارة منزلها لتمر على عريس منهم . لفتاتها فتم التعارف بينهما ودعته السيدة الى زيارتها يوم الاثنين وهو يوم الاستقبال المعتاد فاجاب طلبها شاكرا مسرورا لنجاح مسعاه واخذ يزورهم تقريبا كل أسبوع ولكنه لما اكتشف ان الفتاة لا تميل اليه أخذ يقل من زياراته شيئا فشيئا حتى انقطع دفعة عنها فلما قابل ماري يوم الاحد في الكنيسة وشاهد من حركاتها ما ينم عن حبها له ثارت في نفسه عوامل حبه القديم . وما جاء يوم الاثنين حتى اسرع الى زيارتهما وقلبه يخفق خفقانا شديدا وحين فتحت له الست كريمة كان وجهه شديد الاصفرار فحياها مصافحة على النمط الشرقي ولما سمعت ماري صوته تركت البيانو وتقدمت اليه فصافحته متكلفة شدة السرور وقد عزمت على اتمام دور الرياء والخلاعة التي قامت بتمثيله لاول مرة في حياتها

أما هو فقال ظنا منه أن الفتاة لم تخبر أمها بشيء .

— كنت ماشي من هنا فسمعت صوت البيانو فقلت لما اطلع أسلم على الجماعة

فبشت السيدة في وجهه كما تفعل مع كل شاب أعزب وقالت بلطف

— بقى كتر خير البيانو اللي خلاك تسأل علينا ياسي فؤاد

فاعتذر الشاب بكثرة أشغاله التي حالت بينه وبين زيارتهما هذه المدة ونظر خلسة الى ماري فوجدها تشنف اليه بدلال فتقابلت نظراتهما فنكست

برأسها الى الارض خجلا .

أما هو فسألها قائلا

— هو ايه الدور ده اللي كنت بتضربيه يا مده وازيل

فنظرت اليه نظرة دل ناعسة وقالت بشيء من الخجل كأنها تريد أن تفهمه انهما المغنيان بهذا الدور :

— أنا لك وانت ليه

فاثارت فيه عذوبة صوتها ومعنى الجملة المقصود عواطفه الكامنة تلك العواطف التي لم يجسر على اظهارها وأخذ يسائل نفسه بشيء من التحفظ والريب « هل اصبحت تحبني حقيقة »

أما الست كريمة فكانت تقص لحفلة اكليل احد الجيران وما شاهدته من الزوجين الفرحين بحياتهما الجديدة وبعد أن انتهت من وصفها الرائع الذي كان للخيال فيه نصيب وافر قالت بلهجة لا تفوت الملاحظ معناها

— وامته هنفرح بك ياسي فؤاد

فأجابها بصوت تمازجه رنة حزن حقيقية

— أود ذلك من صميم قلبي يامدام ولكني لم أجد الفتاة التي يمكنها ان تحبني

وهنا قامت الآنسة بحجة رفع كتاب النوته اذ كان القاه الهواء على الارض بعد ان القت عليه نظرة عتاب ساحرة نفذت الى أعماق قلبه وأصابت فيه وتراً حساساً الا انها ظلت مصغية الى حديث فؤاد الذي تابع قوله

— ومع ذلك فاني مع اعترافي بسعادة الحياة الزوجية فلي في الزواج

بضع ملاحظات لا أستطيع ان اتغاضى عنها فقد اجتزت مرحلة الشباب الاولى مرحلة الأحلام اللذيذة وعلمتني الحياة ان لا اثق بالمستقبل بل أصبح هذا المستقبل يخيفني بظلامه المبهم وخوفي منه يجعلني اقنع بحالتي الحاضرة اذ من يدريني ان الحياة التي سأنتقل اليها هي افضل من حياتي الحالية وخصوصاً اني غير جميل فأخشى ان احبتني يوماً ما فتاة يكون حبها وقتياً ثم يتحول الى من هو اجمل مني

وهنا قاطعته السيدة بلطف يمازجه ذاك التنويه الذي كثيراً ما تجنح اليه الوالدات للالماع الى فتياتهن

لا ياسي فؤاد ما عندكش حق . . . مش كل البنات فبت الناس البت المتربية ما تحبش الراجل على جماله ولكن على أخلاقه وآدابه . . وفيه بنات عائلات كتير ولكن انتو يا شبان اليوم مش عاينين بس تتجوزوا

فادرك فؤاد ما ترمي اليه وأخذ يفتش في مخيلته عن جملة رقيقة يفهمها بها انه يحب ماري وانه وان كان تأخر عن طلبها فذلك لعدم مبادلتها حبه ولكن عودة الفتاة الى مقعدها بعد ان وضعت منشلا على كتاب النوته منعه من متابعة تفكيره وانتقل الحديث بعد مجيئها الى الطقس والحرارة والحمى الاسبانيولية التي كانت تفتك فتكا ذريعاً بالاهالي وانسلت السيدة خلال هذا الحديث وذهبت لأعداد شراب له .

وبعد خروج الست كريمة انقطع الحديث وساد السكون بينهما وذلك اما لانهما خجلان من انفرادهما او لانهما لم يجدا شيئاً يقولونه كما يقع غالباً لمحبين فان العاشق يكاد يتلهب شوقاً للانفراد بحبيبته لكي يطلعها على

الشيء الكثير مما يخالجه ويخامره ولما يتم له الانفراد بها لا يجد شيئاً يقوله لها ويلبث صامتاً أمامها كالغبي الغي هذا يقع غالباً للمحبين الاحساسيين لأن حبهم يكون اذ ذاك مضطرباً فامضا لم يدخل بعد في طور النضوج الحواسي

وأخذ فؤاد ينظر لها نظرة حب عميقة وهي تجيبه بمثلها وعلى ثغرها شبه ابتسامة لا يمكن أن يعرف كنهها حتى الملاحظ النابه الدقيق . وليس فؤاد بهذا الملاحظ فانه ما اعتاد أن يدرس الملاحظات النفسانية . الا أن مزاجه المتشائم السوداوي جعله لا يتقبل الشيء الا باحتراس وتحفظ واحياناً بالشك ولذلك فانه ارتاب في صدق عواطف هذه الفتاة « من يدريني أنها ليست كاذبة وان مظاهر حبها هذه املتها عليها الخلاعة النسائية التي تسربت في نفوس الفتيات المصريات » ولكنه تذكر أن ماري ابعد الفتيات عن الخلاعة واشدهن خجلا وطهارة وانه ما مال اليها بادي بدء عند ما شاهدها لاول مرة في منزل صديقه ميشيل اسعد الا لهذه الميزة ولسمة جلال العفاف وخجل العذارى واللطف الملائكي السحري تلك الصفات الجميلة التي كانت تتجلى في شخصها وتنم عنها حركاتها وسكناتها فلبث ينظر اليها لا نظرة حب كما كان يفعل منذ هنيهة بل نظرة درس وتحليل فاضطربت الفتاة أمام نظراته العميقة الذكية التي شعرت بها تتغلغل في أعماق نفسها فاطرقت الى الارض متظاهرة بالحياء وعند اطراقها انفرجت غلالتها فبان منبت نهديها أبيضاً نقياً كالعاج ومع أن هذا المنظر من شأنه أن يثير في الشاب اعصاب الرجولة الملتهبة فقد ظلت حواسه ساكنة باردة دون أن يجلدها بهزة واحدة من هزات اللذة المشعلة الجنونية ... ولكنه شعر بسعادة حقيقية حركت الياف قلبه

الدقيقة العميقة سعادة اوحت اليه المثل الاعلى للحب الروحاني وسمت به فوجد هذا العالم المادي سعادة طاهرة تربو بكثير عن اللذة الدنسة الحواسية . وكأنه أراد أن يتحقق بغتة من صدق حبها فقال برزانة جدية يتخللها التأثر :

— انا زرتكم يامدموازيل لاودعكم قبل ان أسافر . . . فقد عزمت ان استقيل من وظيفتي واسافر الى الحجاز متطوعا في الجيش العربي

— قال ذلك ولبث يحدق فيها مليا فتخيل شبه سحابة حزن مرت على وجهها وسكنت الفتاة قليلا لتوجد شيء من التأثر حتى يظهر في رنات صوتها ثم قالت بعتاب عذب رقيق .

— ها تسافر كده . . . وها تسمح لك أهلك . . .

— اهلي ما يهمهمش امري . . . وما فيش حد يحبني في مصر حتى أبقى

فتصنعت التأثر مرة أخرى حتى تتقن تمثيل دورها وقالت بصوت ظهر لفؤاد دامعا مخنوقا :

— اخس عليك يافؤاد . . . برده ما فيش حد يحبك . . .

نادته باسمه لاول مرة في حياتها ثم اسرعت الى النافذة لتخفي ابتسامة استهزاء بدت على ثغرها من لعبها هذا الدور المضحك المتقن :

فظن الشاب انها سكنت الى النافذة لتخفي دمعة انحدرت على وجنتيها كما كان يتوقع فتبعها وقبض بلطف على يدها وقال وقد زالت كل ظنونه دفعة واحدة :

— انت بتبكي يامامي اخس عليك

فسكتت الفتاة ولم تجب بشيء وقد نجحت بالتغلب على ميل شديد الى الضحك فنسب هو سكوتها الى حياء العذراء . . .

ولما كانت لا تستطيع ان تنظر الى عينيه لئلا يكتشف كذبها ورياءها أطرقت الى الارض وانسدلت اهدابها الطويلة على مقلتيها فتوهم فؤاد ان خجلها منعها من ان تقول له « بقى ما نتش عارف لحد دلوقت باني أحبك » فوضع على شعرها الذهبي المسترسل بلطف ودلال على رقبتها النحيفة الخلية قبلة حارة اودعها كل عواطفه الناضجة قائلا

— انا لك وانت ليه

وما كادت ماري تشعر بحرارة القبلة حتى نفرت وهمت ان تصفعه على وجهه ولكن ما لبث ان رجع اليها رشدها فسكنت الى الخلاعة وابتسمت نصف ابتسامة بعد ان هددته بسبابتها قائلة

— طيب لما أوريك . . .

وهنا دخلت الست كريمة بالشراب فخطب ماري اليها فاجابته الى طلبه مسرورة حتى بدون ان تستشير زوجها

ولم يعرف فؤاد افندي العبداوي ان ينام هذه الليلة لشدة سعادته ولم تستطع ماري ان تنام لعظم شقائها

نوفمبر سنة ١٩١٨

مأساة قروية

— ١ —

نشر الفجر أجنحته البيضاء على أطراف طلخا معمماً ضياؤه الجميل رؤوس شجيرات القطن التي كست الأرض ببساط أبيض فتان موشى بنضارة خلابة وكانت البلدة مستغرقة في نوم عميق لا يتخلله الا هزيز نسمات الفجر تداعب وريقات أشجار التوت والجميز الجيلى المغروسة على حافتي الطريق المخطوطة وسط الفيطان والتي تؤدي الى البلاد المجاورة ومن آن لآخر تغريد متضارب متقطع تغريد الاطيار العائدة من رحلاتها في البلاد الحارة من الصعيد وما زال السكون سائداً على تلك الانحاء الخضراء حتى صاح أحد ديكة البلدة محيياً خيوط الشفق الذهبية الأولى فحذت حذوه بهمة ونشاط ديكة سائر القرى المجاورة بزقائها المتتابع المتضارب وكأن ذلك كان علامة الاستيقاظ العام فما لبث ان أخذت جماعة الفلاحين من رجال ونساء وأطفال تتدفق من الاكواخ المتضامة المشيد أغلبها من البوص والطين وشرع كل في عمله اليومي المعتاد فأخذ الاطفال يقودون البقر الى الفيطان لترعى البرسيم حيث كان يخور من آن لآخر معبراً عن سروره واهتم الرجال بأعمال الري والحرث والبذر تساعدهم في ذلك بعض نسوتهم وأولادهم وبعضهن بقين في المنزل لاعداد الطعام أو لحراسة السكتاكيت والبعض الآخر يذهبن الى النيل ويقفن أمام أحجار بيضاء منراكمة على

الشاطيء ينفضن عليها الثياب بعد ان يغمسنها في الماء مستعيضات بذلك عن الصابون .

وقد أخذت الغربان تتناغق وتتجاوب فتحط على وجه البسيطة للبحث عن الحشرات الكامنة في أخاديد الارض أو المتوارية بين الاعشاب وحلقت الحدأة الجائعة النهمة في القبة الزرقاء الصافية بين طرفي البلدة محدقة بعينيها اليقظتين الحادتين في ظهور الاكواخ حيث النسوة تنهمك الكتاكيت تحت أشعة الشمس المشرقة وتغذيها بفتات الخبز أو مسحوق الشعير .

وكان القرويون يسيرون في الطريق العمومي مرتدين لباسهم الاسود والازرق مطأطيء الرؤوس علامة الخضوع لمشيئة القضاء وامتلأت الغيطان غناة بالفتيات القرويات الجميلات يشتغلن بجانب الشبان القرويين في تنقية دودة القطن وهن مسرورات بهذا الاختلاط الجنسي الشريف الذي لا تمتع به فتيات المدن .

وربضت الناعورة هناك على هضبة من الأرض يظللها التوت والنخيل والكافور المثوي تنشد نشيدها الشجي الحزين وهي تدير بيطيء حبل قواديسها الفخارية الحمراء وقد جلس اليها بضعة شيوخ أقعدتهم الأيام عن العمل آخذين في شؤون عملية تتعلق بزراعتهم وكان حديثهم دودة القطن وقد أحدثت ضرراً بليغاً بالفلاحين المساكين فأعاقتهم عن سداد الاقساط لمدائنيهم الامر الذي حمل أصحاب الديون على نزع ملكية أطيانهم .

فهز الحاج مسعود رأسه وهو شيخ أزهري ضربه المجتمع الانساني ضربة قوية ظلت سراً في حياة الرجل وجنح بعدها الى العزلة في القرية حيث

يقوم فيها بتهذيب أبناء القرويين ونشر تعاليم حكيمة بين هذا الجمهور الساذج الفطري وحل ما يقوم بينهم من المشاكل حتى أصبحت له مكانة سامية في قلوبهم وقال بعد ان داعب بأصابعه لحيته الكبيرة البيضاء المشوبة بالاصفرار

أن الله عز وجل أرسل لنا هذه الدودة عقاباً لنا على فساد اخلاقنا قال ذلك بلغته العربية الفصحى التي اعتاد التكلم بها مع جماعة الفلاحين كأنه يريد أن يحفظ لنفسه حق الميزة عنهم ووافقه القرويون على أن الدودة هي ضربة سماوية لمعاقبة الاشرار بهذه الثقة العمياء التي يحملها الاميون الساذج لرجال العلم ثم انتقل الحديث الى الشاب محمد بن المرحوم عبد القادر الذي حكم على والده بالاعدام لقتله قروياً بعامل الانتقام وكان هذا الشاب ممن خسروا كل قطنهم بفعل الدودة في سنة ١٩١٤ تلك السنة المشؤومة على عموم الفلاحين . فاظهر البعض أسفهم لان اطيانه مرهونة لجملة مدائنين يهددونه من ساعة لاخرى بنزعها وطرحها بالمزاد العمومي والبعض الآخر من الذين خسروا قطنهم لم يكترثوا به ان لم يكونوا قد شعروا بشيء من السرور الداخلي لرؤيتهم أناساً تشاركهم في مصابهم ويظهر أن الشيخ أبو حسن كان قد نصح محمداً أن يستعيض عن زرع قطنه بقمح فلم يفعل فسر وعد خسارته نتيجة عدم عمله بنصيحته

وكان القرويون والقرويات الذاهبون جماعات ووحداناً الى أعمالهم يحيونهم وهم مارون عليهم بقولهم السلام عليكم والآخرون يجيبونهم وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

ومرت بهم فتاة ذاهبة الى غيط القطن فقالت السلام عليكم فاجابوها

بنفس واحد : وعليك السلام ورحمة الله يافاطمة

وما كادت تبتعد حتى علت ابتسامة على شفاه الحاج أبو حسن الغليظة القاتمة وقال بخبث :

— يعني ماحدش يشوف نفري بيه اليومين دول .

وكأن الشيخ مسعود أدرك ما يرمي اليه فاجابه برزانة ونشوفة جملته يبلع بقية أقواله : « نفري راح عند عمه في مصر » . وخوفاً من أن يعود أبو حسن الى النميمة أخذ يقص لهم حكاية وقعت له في مصر في عهد الشباب ذاك العهد الذي يصبح تعزية الشيوخ في شيوختهم

— ٣ —

ذهبت فاطمة الى غيط كسته الخضرة بنضارتها وتوجته اعراف القطن بتاج الشيوخة المهيب وأخذت تبيد بويضات دودة القطن وكانت في الرابعة عشر من عمرها ذات جمال خلاب نشاهده احياناً في فلاحاتنا وعينين سوداوتين تتقدان في وجه بيضوي اسمر شاحب ذاك الشحوب المصري الفتان المتلىء حياة وسحراً وهي تختلس اثناء عملها النظرات المضطربة الى الطريق العمومي ولما لم ترمن تنتظره تمتلىء عيناها حزناً وتعود الى عملها متثاقلة متهالكة ذاهلة .)

ولقد ظلت في شبه هذا السبات حتى ايقظها خوار « جوهرة » التي كانت ترعى البرسيم في غيط مجاور فتنبهت وقد أثار خوار البقرة في نفسها ذكريات قديمة كانت مدفونة بين طيات قلبها : تذكرت أيام طفولتها أيام

كانت تخرج في فصل الصيف مبكرة مع ابن عمها لتلتقطا الرمث المتساقط تحت النخيل وفي أيام الشتاء ليتصيدا الاسماك المتخدرة من شدة البرد الطافية فوق الصفحة الزجاجية من الجداول وعبرت أمام عينيها تلك الذكريات الفديمة ذكريات حبها الاول لابن عمها محمد ذلك الحب الذي أخذ يحتضر ويتلاشى شيئاً فشيئاً أمام حبها الجديد . . . وكأني بها وقد أخذت تسائل نفسها عن اسباب هذا التحول ولكنها عبثاً كانت تحاول أن تدرك سر ذلك الانقلاب . وقصارى ما كانت تذكره فاطمة أنها في نحو العاشرة أو الحادية عشر تقريباً من عمرها صحبت اباها ذات يوم الى « سراية » سعيد باشا في حاجة له مع سعادته وقد رأى الفروى أن ليس من الذوق السليم مقابلته مع ابنته فتركها في الحديقة ريثما يعود فوجدت الفتاة بضعة أطفال أكبر منها سناً يلعبون في الحديقة ويتسابقون . فسكنت الى مكان منفرد تحت ظل شجرة وارفة واخذت تتبع حركاتهم بحزن لعدم ركونها اليهم ومشاركتهم في لعبهم فلاحظ نفري نجل الباشا انكماشها وادرك ما كان يجول في صدرها الصغير فاشفق عليها وتقدم نحوها قائلا بلطف وادب وعذوبة . « مالجي تلعبي ويانا ياعروسة » ومنذ ذلك اليوم شعرت فاطمة نحو هذا الطفل بعاطفة شكر عاطفة مبهمة غامضة عذبة تسربت الى اليافع قلبها . » ...

٣

كان نفري نجل سعيد باشا الوحيد صاحب تلك الاطيان الواسعة التي يؤجرها لصغار الفلاحين ورثها عن والده خليل أغا الكخيدار ولا أحد

يدري سبب هجر الباشا العاصمة واقامته في الريف غير انه كان يشاع انه لاذ بالفلاحين على أثر تطليقه احدى زوجاته . . . ويظهر انه أقسم ان لا تقطن حريمه بمصر القاهرة مرة أخرى فعند ما كبر ابنه أرسله الى عمه فيها ليدخله احدى مدارس الحكومة .

وما كان نفري يعود الى أهله في طاخا الا مدة العطلة المدرسية وكانت تنتهزها فاطمة لتتملى منه ولو عن بعد . ولكن الشاب كان قد نسيها وقد التقى بها مراراً دون ان يعيرها التفاته لانها كانت طفلة لم تتكون بعد خطوطها النسائية وكان هو طفلاً أيضاً لم تكن استيقظت فيه الغريزة الآدمية الحيوانية ، فلما عاد هذه السنة الى البلدة وقد ساعدت ملاهي العاصمة سرعة نضوجه ووقوفه على أشياء لا يعرفها أبناء الريف والتقى بفاطمة التي كادت تصبح امرأة ناضجة رافت له دون ان يدري ما يجيش في صدرها الغامض من عوامل الحنان وحفظ الجميل .

فرآها صبيحة يوم تتمهد شجيرات القطن فوقف وراء شجرة كبيرة من الجميز يرنو بناظره النهم المتقد الى تكوينها الانثوي الخلاب ويتتبع حركات خطوطها النسائية البديعة وقد شعر بشيء من الخجل منعه الاقتراب منها ومغازلتها . وهذا الخجل ناتج من احترامه تقاليد قومه اذ علم من بعض القرويين بقرب زفافها الى ابن عمها محمد .

وحانت من فاطمة التفاتة نحو الجميزة بينما كانت تبحث عن شرنقة أفلتت منها وتغلغلت في ثنايا الوريقات فرأته فابتسمت فشجعه ابتسامها على ترك مخبأه . وما كاد يدنو منها حتى وقف جامداً متحيراً لا يعلم ما يقوله لها

فأنقذته فاطمة من حيرته بقولها : أزيك ياسيدي البيه

وأخذا يتحادثان وهي تجيبه بسذاجة وحياء وغلبتها عواطفها فأذكرتها ذلك اليوم الذي رأته فيه لأول مرة وشعرت فيه ببدء عاطفة جديدة أخذت تنمو حتى جعلتها ترقب العطلة الصيفية لتراه فيها وكيف كانت تود مخاطبته لولا ما كان يظهر لها منه من عدم اهتمامه بها وهو يحاول الاعتذار بحجة ان الحياء حال بينه وبين مخاطبتها مع شدة ميله لذلك وكان الشاب يكلمها برقة عذبة مسكرة لم تسمعها في أحد من قومها فتأثرت ولا شيء يؤثر في المرأة الحساسة بفطرتها سوى طلاوة الرقة .

— ٩ —

كانا يتقابلان صبيحة كل يوم وفجري يتكلف لها احساسات كاذبة لم يشعر بها لانه كان يحب الفتاة حباً حواسياً مع أنه في سن الثامنة عشر سن العواطف والحب الاحساسي وما ذلك الا لانه عند ما ابتدأت تستيقظ فيه عوامل الطبيعة وشعر بحاجة الى الحب لم يجد حوله فتاة تشاركه عواطفه الشريفة وبهرها كل قلبه البكر الطاهر لان التقاليد الشرقية قضت على الاختلاط الجنسي وحالت بينه وبين الفتيات فاضطر كثير من شبابنا الى الالتجاء الى بائعات الهوى لاخماد الجذوة الاحساسية المتقدة في أعماق قلبه فتعرف في احدى قهاوي الازبكية بالست لمظ فاحبها حباً طاهراً عذريا وأخذ يزورها كل يوم بعد خروجه من المدرسة ويقضي معها ساعات طويلة يحدثها فيها عن حبه الشريف وعواطفه الصادقة وهي تضحك منه سراً على سذاجته ولما

لم تحترم طويلا هذه السذاجة الطاهرة وأوقفته على سر الحب خجل من نفسه وآلى أن لا يعود الى مثل غباوته الاولى مرة أخرى ... فكان كلما أحب امرأة أحبها الحب الذي لقنه اياه لحظ ... وهكذا بعدما كانت المرأة توحي لفخري المشاعر الشعرية الجميلة أصبحت لا تهز فيه الا هزات الرغبة الحواسية الجنونية وهذا ما يفسر سرعة تيقظ حواسنا نحن المصريين ذلك التيقظ المبكر البدري الذي لا يجب ان ننسبه فقط الى حرارة بلادنا ومما أبهز على عواطف فخري بافسادها وتسميمها ظهور النوع الكشكشي بنغماته الحواسية ومعانيه الخفية المنبهة للغريزة الآدمية الحيوانية وممثلاته النصف عاريات وخلاعتهن النسائية وصوتهن العذب الرقيق النفاذ وجمال تكوينهن الانثوي الخلاب ثم ان فاطمة ليست بالفتاة التي توحي للشاب الحب العذري الشعري فان جسمها الشهي الناعم وعضلاتها الممتلئة وخطوطها المنسجمة وصدرها العريض القوي الناضج كل ذلك أغلى في شرايين الشاب دماءه الحارة المندفقة الثائرة .

— ٥ —

مضت ثلاثة ايام وفاطمة لم تر في خلالها فخري وكانت تختلس من اوقات عملها لحظات تذهب في خلالها الى سراية سعيد باشا الكختدار وتحدق عن بعد في نافذة فخري الذي اعتاد الجلوس اليها ساعات فراغه ولكنها وجدتها مغلقة في الايام الثلاثة ومنعها الخجل والخوف من ان تستقصي خبره من الخدم وقد اوحى اليها الهامها النسائي أنه ذهب الي مصر والمّ

جها من جراء هذه الفكرة حزن حقيقي اثقل صدرها لان الشباب كان يقص لها وقائع غرامه مع هوانم مصر الجميلات مدفوعاً بذلك الفرور الذي يعتري عادة الانسان في عهد الشباب او لرغبة منه في اثارة غيرتها والغيرة تولد احيانا الحب

وفي المساء سكنت فاطمة الى مخدعها على السطيح حيث اعتادت ان تنام في ليالي الصيف الحارة وأخذت تجيل انظارها تارة في السماء الصافية المتلألئة بالنجوم العديدة وتارة في الفيطان وقد مد عليها الظلام رواقه الاسجف المخيف واعترى الفتاة ارق شديد نسبته الى حرارة الليل وتعبق الضفادع المتشابه المتتابع ونباح الكلاب المتضارب الاجش ولكن مداومة تفكرها في نخري هي في الحقيقة التي منعتها عن النوم ولعل احدى الاسباب التي تذكي فينا الحب مداومة تفكيرنا فيه بدليل اننا قد نهيم في حب امرأة خالية من محاسن الجمال ومميزات اللطف والادب هياما يقرب من العبادة والجنون مع ان لا علاقة للحواس أحيانا بهيامنا على أن فاطمة كانت تحب نخري ايضاً بحواسها وهي الفتاة الشرقية الحواسية بفطرتها . فشعرت فجأة وهي تفكر فيه بهزات لذيذة مسكرة اجتاحت كل جسمها . فقبضت على الوسادة وضمتها بشدة الى صدرها كأنها تتخيلها نخري نفسه ثم ما لبثت ان خجلت من خيالاتها فهبت جالسة على حافة المضجع وحانت منها التفاتة الى الفيط فرأت خيال شخص يسير ذهابا وجيئة . وتمكنت فاطمة من ان تميز فيه بتصميص النجوم محمد ابن عمها وخطيبها واستغربت سهره ومن عادته أن ينام بعد صلاة

العشاء ولا يستيقظ الا عند شروق الشمس .

فتذكرت فاطمة بغتة حنانها القديم لمحمد ايام كانا يلعبان معاً ويتصيدان الاطيار والاسماك وأدركت انها لم تعد تشعر نحوه بثقل ميل بل شعرت بعكس ذلك بعامل غامض يمازجه شيء من التخوف والكره الخفي ذلك الكره الناتج من اعتقادها انه الحائل بينها وبين سعادتها وما لبثت ان اندهشت من قسوتها التي لم تكن لتعهدها في نفسها

— ٦ —

مر بفاطمة وهي تنقي خطوط القطن محمد ابن عمها وخطيبها وهو شاب في العشرين قصير القامة نحيف الجسم ذو عينين سوداوين تتقدان في وجه لفحته شدة الهجير وكان بروز عظام وجنتيه وهزال وجهه الشاحب ونتوء تجعدات خفيفة عند شفرة فمه تدل على ما يخالجه من مرض خفي سمم دماءه . فبادرها التحية فاجابته عليها بقولها .

— الله يعافيك

كانت اجابتها بشيء من النشوفة والبرود لا ابتسامة دل فيها او نظرة حنان كأنها تجيب شخصاً غريباً عنها حياها مصادفة . فشعر محمد بالهوة العميقة التي حفرت بينهما فقد اصبحت ابنة عمه تلك المخلوقة الصغيرة الوديعة الجميلة التي ربها وتعهدها منذ طفولتها تلك التي اراد ان يجعلها له حليلة اصبحت غريبة عنه نافرة منه . فوقف جامداً لا يدري ماذا يقول وباي لفظ يعبر لها عما يجيش ويتضارب في صدره الغامض من الآم الشك فقد

كان لاحظ بعض الناس يتهامسون عندما يمر بهم وسمعهم مرة يقولون اسم نفري بفاطمة وعلى شفاههم ابتسامة الهزء والسخرية الا انه كان يأبى ان يصدق شيئاً عليها وحاول أن يطرد من مخيلته مثل فكرة مريبة لو ثوقه منها ولكن الشك بدى، يتسرب الى نفسه ويخزه من آن لآخر بوخزاته المؤلمة المسمومة . وأخذ يراجع مخيلته منظر لم يأبه له بادى، بدء ويزيده شكا وايلاما كلما تجسم له منظر نفري يحادث ابنة عمه بحرارة ملتهبة فلما اقترب منهما سمعه يقول لها بعدم مبالاة « بقى قلتيلي ان القطن السنة دي أحسن من عام أول »

وتمكن القروي الان من ان يدرك سبب ارتباكهما عند دنوه منهما ولم اضطراب نفري لان بغير موضوع حديثهما تمكن من أن يلمس تلك الحقيقة المرة القاسية : ابنة عمه تحب غيره .

ولما كان يبحث في مخيلته عما يقوله ليكاشف ابنة عمه بما يجول في صدره لم يجد خلاف هذه الجملة : .

— انا ما غتش امبارح يا فاطمة

فادركت ما يرمي اليه فملت بشرتها سحابة قاتمة سوداء وأجابته على الفور بلهجة جافة لم تقوَ من ان تلطفها بمسحة من رقتها المعتادة :

— ومين اللي عرف ينام من الحر .

فوقع محمد في ارتباكه الاول امام جوابها المفحم اذ أفهمته ان السبب طبيعي عادي . فاخذ يبحث عن طريقة أخرى فلم يجد ولما رأى نفسه واقفاً جامداً بليداً امامها اعتراه الخجل فقال :

— لما أروح يجي

قال ذلك ولبث واقفاً كأنه لا يزال يأمل أن تقول له كعادتها «ما لسه بدري ... ما تجمد شوية» ولكنها تظاهرت بانها لم تسمعه وتابعت عملها بهدم اكتراث فقال لها بصوت قوي محدقا فيها :

— خليتك بعافية

وقد انقطع أمله بغتة عند ما سمعها تجيبه بعدم اهتمام

— الله يعافيك

فانساب الشاب متحاملا على نفسه في تلك الطريق القفرة المهيبة وهو يلتفت أحياناً الى فاطمة يرى هل هي تشيعه بنظرها ولكنها لم تكن مهتمة به وكل أفكارها محصورة في شخص فخري وقد علمت برجوعه من مصر في قطار الفجر

— ٧ —

لم تمض عشر دقائق على ذهاب محمد حتى ظهر في منعطف الطريق شاب ارستقراطي الهندام قد لفحت حرارة الشمس بشرته التركية الشقراء البيضاء ولونتها بمسحة من اللون القمحي الجميل فلبث برهة واقفاً عن بعد يتملى من جسمها الشهي الناضج وقد رأته فاطمة فتظاهرت بانها لم تره وتابعت عملها متصنعة السكينة الا ان وجنتيها تخضبتا بلون وردي جميل وانعكس فرح قلبها بجلال على صفحة وجهها وبعد ان تمتع بجمالها الباهر اقترب منها قائلا « أزيك يافاطمة»

فزاد احمرار وجهها الاسمر ولم تجب وقد خانها النطق ووضعت يدها على صدرها كأنها تريد أن تسكن من خفقان قلبها المضطرب فردد الشاب تحيته وهو يغالب عبثا دماء الشبيبة الحارة الثائرة التي تدفعه الى لثم ذلك الجسم الانثوي الخلاب

وهنا تجسمت لفاطمة فكرة اختاجت لها عضلاتها وتقلص لهولها جبينها فصاحت تقول وكل جسمها يرتعد من الخوف

— اوع محمد يشوفنا أحسن هو غيران ويجلنا احنا لتنين

فهز الشاب كتفيه دلالة الازدراء وعدم الاكتراث ليعيد اليها الاطمئنان ثم حاول أن يرجع الابتسامة الى شفتيها بقوله .

ما تخافيش يا فاطمة ونا معاك .. دنا أحميك برقبتي

فابتسمت ابتسامة حزينة افترت عن رتل يغشوه ظلمة متلألئة وانسدلت أهدابها الطويلة على روا وجهها الاسمر الوردي اما هو فاردف يقول:

اول واحده حبيتها يافاطمة حب صحيح هي انت . . « كل هوانم مصر اللي شفتهم مايجوش حاجه قدام جمالك » فنظرت اليه نظرة عتاب تلك النظرة التي تفهمنا المرأة بها انها لا تصدقنا ومع ذلك فهي تحبنا ثم تركت عملها واسندت ظهرها على جذع شجرة وارفة من التوت كانت تقيها ساعات القيلولة لفحات الهجير المحرقة وقد انسدلت جدائل شعرها بليونة وخلاعة على كتفيها الممتلئين

فأثار فيه منظر جسمها الشهي الناعم اعصاب الرجولة المحتلمة المتيقظة

فوضع شفتيه المتلهمتين النهمتين على الزغب الحريري المضطرب فوق منبت رقبتها فابتعدت عنه نافرة مخفية اللذة الداخلية التي شعرت بها من هذه الملاطفة الحواسية بسحة من الغضب تظاهرت بها ثم كأنها ثملت فاقتربت منه رغما عنها مدفوعة بقوة لاتقهر فجذبها الى صدره بغلظة وامتص رضاب شفتيها الحمراوتين وكأن غلظته راقت لها فاستسلمت ولم تبد اقل مقاومة .....

وانهما لكذلك واذ بحدأة هبطت بقوة على شجرة التوت التي تظلهما حاملة بين مخالبها كتكوتا يحتضر وكان يسمع له انين ضعيف مخنوق ولم تكد تستقر على احدى اغصانها حتى لحق بها غراب منقاداً بحاسة الشم القوية الخاصة بالطيور الجارحة فتعلق على غصن بحازيه ولبث في مكانه يراقبها بخوف وجبن وهو ينعق بكل قواه . وكأن الحدأة كانت واثقة من قوتها وتفوقها على خصمها فلم تعره ادني اهمية وواصلت بمخلب التهام فريستها الصغيرة .

وعلى اثر النعيق جاءت عصبة غربان حاولت سلب الحدأة فريستها فبسطت هذه جناحيها التويتين اشارة التهديد وما ان انتهت من عملها حتى القت نظرة ازدراء باردة على اعدائها الجبناء الذين لم يجسروا على الانقضاض عليها ثم حلقت في الجو فتفرقت الغربان :

ثم سمعت فاطمة اصوات رجال سائرين في الطريق العمومي المؤدي الى الغيطان والقرى المجاورة وتبينت من اصوت احمد ذلك الشاب الزرقي يقص بكبرياء لجماعة من الفلاحين منازعاته الحديثة مع اهل زوجه منازعات ختمت بينهما بالطلاق ثم اخذ صوته يضعف شيئا فشيئا كلما ابتعد عنها حتى

غاب نهائيا في هذه الطريق المقفرة التي كانت اشجار الجميز والتوت تبسط على على ناحيتيها ظلا كثيفا سميكا ثم سادسكون مهيب يتخلله خفيف الوريقات تداعبها نسمات اواخر الصيف الفاترة وتغريد متقطع عذب تغريد بعض الاطيار كانت تتناقل بخلاعة من شجرة لاخرى ممعنة بجمالها ونغمات الناعورة وهي تدير ببطيء حبل قواديسها الفخارية وكان جزء من الارض هذه الارض التي يمشقها الفلاح بشغف وغيرة وحشية مكسية ببساط ابيض فتان موشى بنضرة لامعة خلابة وامتد البرسيم على الجزء الاخر بميدانه الرقيقة الليفة وهو ينام ويتضام عند هبوب الهواء ويتموج سطحه السندسي المزدان بازهاره البيضاء وهنالك على اطراف الغيطان المترامية البعيدة الواسعة كان النيل يهدر هديرة المتشابه المتهالك منجزا توشيه منظر تلك الاطيان البديعة

٨

توغل محمد في الغيطان بعد ان ترك فاطمة وكان يسير ببطيء خائر القوة ويقف من آن لآخر فيضع يده على صدره متلمساً مكان قلبه وقد كاد يتمزق لشدة الخفقان خفقان قوي مؤلم غير منتظم يداهمنا في الازمات الهائلة لا سيما عند وقوفنا على خيانة المرأة التي أحببناها وحصرنا فيها كل آمالنا وسعادتنا ووجودنا وجنح الى مكان منعزل قفر تحت ظل جميزة وأخذ يبكي ثم ما لبث ان أخجله ضعفه فامسك عن البكاء وأخذ يتسائل عن ماهية التي شلت قواه وجعلته يقف صاغراً امامها يخاطبها بذل وانكسار

أيبكي هو الآن من اجل طفلة طالما ضربها واهانها وابكاها. استاء من ضعفه وجبنه فامسك عن البكاء. وقد عرف لاول وهلة درجة حبه لابنة عمه اذ شعر بافتقار الكون وعزلته فيه كأنها كانت كل شيء في الوجود. أدرك محمد ان شخصاً أضل قلبها فمقته مقتاً قتالاً وسولت له غريزته ان لا يجعله يهنأ بها. فقام يتابع سيره وقد استيقظت في أعماق نفسه الغريزة الوحشية الدموية موقناً ان حياته أصبحت متوقفة على قتل غريمه ولا يمكنه أن يعيش بعد الآن لحظة واحدة ما دام ذلك على قيد الحياة يثير في احشائه ذلك الألم القوي. وأخذت تختمر هذه الفكرة في رأسه وما أدرك منزله حتى كانت فكرة ثابتة فاخذ بندقيته وسار دائماً تقوده رجلاه وهو لا يدري حيث ابنة عمه. فبصر عن بعد بفخري يحادثها فاستحضر وصوب بندقيته لكنه شغف في معرفة الالفاظ التي تمكن بها هذا الرجل الحضري المتعلم من امتلاك قلب ابنة عمه فهوى راكعاً على ركبتيه وأخذ يحبو على بطنه ويزحف نحوهما وسمعت فاطمة حركة صامتة بقربها فتلفتت فلم ترَ شيئاً ولكن سرت في جسمها رعدة باردة اثلجت جسمها الثائر الحار فتخلصت من ذراعي فخري القويين وغمغمت بصوت مختلج.

سيبني. سيبني واهرب.. أحسن يكون مراجبنا وسامع كلامنا.. خسارة عليك انت شباب!...

وفي هذه اللحظة ظهر من بين شجيرات القطن رأس ابن عمها ليلتهم كلماتها وقد بدت على سيماه أمارات وحشية هائلة.

وقد اثارت كلمات الفتاة في فخري شجاعة الرجولة التي يفتخر ويتباهى

بها الرجل امام الانثى فصاح بغضب يقول :

— خليه يجي وانا اطرده بعصاي زي الكلب .

وقبل أن يتم كلامه انبرى محمد وهو يتهدج غضبا وعيناه تتقدان وتبعثان ناراً ودماء وقد قبض على بندقيته وصوبها الى صدر نخري فاسرع هذا وتناول من جيبه مسدسا اعتاد حمله اثناء اقامته في الريف الا ان الفلاح تمكن من اطلاق بندقيته قبله فخر الشاب متضرجا في دمائه ووقفت فاطمة مغشيا عليها بجوار جسم حبيبها

وعلى أثر صوت العيار الناري خف أخو الفتاة وأبوها وكانا يعملان في غيط مجاور وهذا الاخير عجوز تموج في ثنايا لحيته الكبيرة البيضاء أشعة ذهبية وقد وقف جامداً متصلبا يتأمل في ابنته الملقاة تحت قدميه بنظرة مفعمة بالشفقة نظرة امتزج فيها شرف العرض بالحنو الابوي ثم انحدرت دمعتان على صفحة خديه اللذين خطتهما تجعد الشيخوخة الجائرة :

— وايه اللي ها نعمله بفاطمة

فاجابه ابنه متهدجا بعزيمة صادقة عزيمة المتعصب الاعمى الذي يقدم على قتل أخيه في البشرية وهو يعتقد انه اتى عملا عظيما يكسبه الحياة الخالدة.

— نلحقها في البحر

وهنا تحولت أنظار الشيخ لابن أخيه محمد الواقف على رأيه كأنه الامل الوحيد الذي تبقى له وكان محمد واقفاً حزيناً فوق رأسها يتأمل في شعرها الكثيف المتجعد المسترسل بلطف ودلال على البارض الاخضر النامي فوق

حافتي القناة وفي أهداب عينيها المطبقتين وفي الزغب الحريري المتطاير على لمتيها وفي وجهها الاسمر الشاحب وقد زاده الاغماء جمالاً وسحراً وفي خلخالها الفضي المتلالىء تحت أشعة الشمس وجاشت في نفسه المنجرحة الدامية طائفة من الذكريات اللذيذة المؤلمة . فرأى نفسه طفلا يداعب فاطمة وبني معها بيتهما الصغير في نفس هذا الغيط تحت نفس هذه الشجرة الجميلة التي شاهدت سعادة طفولته كما تشاهد الآن شقاء رجولته وتذكر يوماً كان يقود فيه البقرة « جوهرة » مع فاطمة وثارت عليها البقرة فجأة وهربت منها متغلغلة في الغيطان وهي تخور فرحة بحريتها الجديدة فطفقا يطاردانها ويجدان في أثرها وفاطمة تبكي وتستغيث حتى أضناها الاعياء فتوقفت عن الركض وارتمت منهالكة على العشب ثم لما نجح هو بالقبض على جوهرة بمساعدة بعض القرويين عاد حيث كانت جالسة فاطمة تنتظره فحملها بين ذراعيه — كم كانت تحبه وقتئذ كان يعتقد انها له كان يراقب كل يوم نموها ونضوجها آه ! آه ! لا توجد آلام أعظم من آلام التفكير بالسعادة الماضية في أيام الشقاء فتنهد عن قلب مكلوم وقال بعزيمة قوية جاءت بعد تردد طويل

— ايوه نجتلها

وظل محمد طول الليل ساهدا متألما مفكراً يسائل نفسه هل اخطأ ام احسن عملا

* * *

عثر البوليس في الغد جهة شربين على جثة فتاة مهشمة الاعضاء

مشوهة الخلقة طافية على وجه المياه فالتقطها دون ان يتوصل الى معرفة شخصيتها اما فخري فلم يصب الا بجرح شفي منه وأبى ان يبلغ البوليس الحادثة أو يمدّه بادنى المعلومات عنها . فعل ذلك اما خوفا من انتقام القرويين أو حرصا على سمعته . والامر المدهش ان هذه المأساة المؤلمة لم تترك تأثيراً قويا في نفسه وربما أصبح الآن لا يفكر مرة واحدة في تلك التي ماتت من أجله .

مصر نوفمبر سنة ١٩١٨

obeikandl.com

النزعة النسائية

(١)

هرمين اركانيان فتاة أرمنية متمصرة اجتازت السن التي تنتقل فيها الفتاة في الشرق من الطفولة الى الشباب وتتكون فيها اعضاؤها الانثوية الفتانة فتقوم في نفسها عوامل جديدة غامضة تشعرها لاول مرة بفراغ قلبها وحاجته الى الحب وكانت تقطن مع والدتها الارمل منزلا في الفجاله يشرف طنفه على نافذة فريد مسعود شاب مصري في سن الفتاة قد توافق فيهما استيقاظ عوامل الطبيعة الكامنة .

* * *

بكرت هرمين صباح يوم من أيام الصيف الهادئة الفاترة وخرجت الى الشرفة تستنشق النسمات البليلة مرتدية غلالتها الليلية الشفافة البيضاء التي تنحسر عن ساعديها وعنقها وصدرها الى النهدين وتنم عن خطوط جسمها المنسجمة الناعمة . وكأن الفتاة أدركت ان ابراز تقاطيع جسمها يلهب في نفوس أبناء الجنس القوي جذوة الافتتان فعرضت بهذا المنظر لفريد بلا خجل وبجرءة وقحة فما رآها حتى شعر ان قلبه يكاد يطفر من بين جنبيه وان دماءه الحارة قد ثارت دفعة واحدة في شرايينه التي كادت تنفطر ... فأخذ يخالسها النظر بخجل بري فلاحظته ورمقته بنظرة دل ناعسة تلك النظرة التي تريد بها المرأة افهام الرجل انه راقها فتقابلت

نظراتهما ... فابتسمت ... فلم يجد بداً من ان يحني رأسه تحية ... وكان ذلك فاتحة الحب

دام حبهما مدة شهرين كانت أسعد أوقات حياة فريد : تدرجا في خلالها من النظرات والابتسامات والتحيات الى مبادلة الرسائل فالمقابلات في الحدائق وعلى ضفاف النيل وهناك امام الطبيعة الكتوم تحت أشجار السرو الجميلي تعاهدا على حب أبدي .

***

خلت الطبقة العليا من منزل فريد وحل بها شاب جميل ارستقراطي الهندام عصري التقاليد خفيف الحركات فاخذ يغازل الفتاة مغازلة عذبة جميلة بفن جري جديد لم تعهده في فريد الحي الخجول فمالت اليه وأخذ حبها الاول يتلاشى شيئاً فشيئاً تحت تأثير القوة الجديدة التي بدأت تتسرب في جسمها ونفسها

ولاحظ فريد تبادل نظراتهما وابتساماتهما فحزن وأراد ان يعاتبها فجلس الى نافذته كالماضي نحو الساعة الخامسة مساء عند عودتهما من المدرسة مترقباً خروجها الى الشرفة فخرجت بعد قليل ولكنها لم تلق نظرة واحدة على نافذته كما كانت تفعل بل كانت عيناها محدقتين في نافذة الطبقة العليا حيث يقطن فيها الجار الجديد ثم رآها تبتسم ابتسامة حلوة محيية وتحني رأسها بلطف ودلال . فكاد صدره يتمزق من شدة الالم . فناداها رغماً عنه بصوت دامع مخنوق فكان جوابها نظرة ازدراء حادة نفذت الى صميم فؤاده فمزقته وما كانت تراه بعد هذا اليوم في النافذة يرنو اليها الا وتغلق

في وجهه باب الطنف بشدة مهينة مسحقة .

(٣)

لا اظن انه يوجد ألم اقوى من ألم الغيرة وقد حاول عبثا العلماء النفسانيون الوقوف على اسبابه ولما اعياهم تعليله نسبوه الى الاثرة وحب النفس زاعمين ان الانسان الاناني بفطرته يتألم لما يرى ملكه الخاص قد اغتصبه غيره ولما يجد انسانا آخر امتاز عنه ببضع صفات ومحاسن

اما الغيرة فعلى انواع ثلاثة . غيرة الحواس وغيرة القلب وغيرة العقل وتختلف كل غيرة عن الاخرى اختلافا تاما من حيث العناصر والاغراض والآلام .

فالغيرة الحواسية وهي التي تنتاب من يحب بحواسه تذكي الحب بدل ان تخمده وتسم العواطف بالكره ذاك الكره الفظيع الوحشي الذي يدفع الانسان الى قتل من يحبها اذ لا تسكن آلامه الا بالانتقام الهائل الدموي ومن أعز امانيه ان يراها تحتضر شقاء وآلاما وان يمزق غريمه تمزيقا ليخمد بدماءه المهدورة آلامه الجنونية وذلك بعكس الغيرة الاحساسية فهي تدفع المرء الى رقة الشعور والاحساس العميق والعواطف الشريفة الكبيرة. فقد يضحي الغيور الاحساسي كل شئ حتى حياته ليظهر لمن يحبها وتخونه عظمة حبه الخالد وكثيراً ما تراه يأبى بتأفف ان يعزي نفسه بحب آخر جديد لئلا يسيء الى ذكرى حبه المقدسة ويعطف على من انتزع منه حبيبته ويحيه احيانا لانه سبب سعادتها وطالما شاهدناه يصفح لمن خانته ويفتح لها ذراعيه

مبتسما مسرورا غافرا ناسيا ما احدثته في قلبه من الجروح الدامية المميتة ليظهر لها عظمة حبه بالعفو عنها بينما الغيور الحواسي يرفض بغلظة وحشية وكبرياء هائل ندامتها وتوبتها الذليلة الصادقة ويمرض من قبلاتها الحارة ومداهناتها الحواسية المثملة بحقد ولو كان يميل بكل قوى دماءه الحارة ان يغمر حواسه الثائرة المريضة في ذاك الجسم الشهي الذكي الذي قد يشفيه دون سواه من داءه العضال .

واذا كانت الغيرة الحواسية تذكي الرغبة فالغيرة الاحساسية تقتلها وأحيانا الى الابد . والغيرة الحواسية تنفجر في شكل أزمات وقتية أما غيرة القلب فتتحول الى فكرة مرضية ثابتة يشوبها حزن سوداوي وقد تصيب الانسان من جراء هذه الغيرة المؤلمة الهادئة العميقة الامراض النفسانية كداء النروستانيا والسوداء .

أما الغيرة الخيالية فتنتاب من يحب بخياله أي من لا يحب لا بقبله ولا بحواسه فتجده دائما متذمرا متململا اذا ما قابلته لا يحدثك الا عن ثقل وطأة الحب فيقول لك مثلا اني أريد ان افارقها ولكني مشفق عليها لانها تعبدني عبادة وقد تنتحر لفراقي . . . اواني لا انصحك ان تحب أبدا يا عزيزي لان الحب قتل حرية واستعباد مع ان الاستعباد في الحب الذي يتذمر منه هو أعظم أمنية يطمح اليها المحب الحقيقي .

فلما يفارق المحب الخيالي حبيبته يسر ويفرح كلما رآها تبكي وتتألم لفراقه لان منظر شقاءها يرضي انانيته الغاشمة الغبية وحينما تبتدىء هذه المرأة المسكينة ان تثوب الى رشدها وتتناساه باتخاذها محبا آخر نرى صاحبنا قد

أخذته الغيرة الحمقاء فيكره تلك المرأة ويمرّض بها تمريضاً مهيناً ويرميها بكل أنواع الخيانة والفجور . وهنا تتفق الغيرة الخيالية مع الغيرة الحواسية من حيث الكره الشديد القتال الا انها تختلف عنها بعدم اذ كائها في الرجل رغبة الرجولة وعدم اثارتها فيه ذكرى المداهنات الحواسية المثلة التي كانت تداعبه بها حبيبته فالغيور الخيالي لا يتألم كالغيور الحواسي من ذكرى ذلك الجسم الشهي الذكي الذي يراه الآن ملكاً لرجل آخر يلوثه بقبلاته الخشنة الدنيئة . ولكن تألمه ناتج فقط من امتعاض حب الذات من امتهان الانانية المتعجرفة وهذا الم صبياني سخيف يدعو الى السخرية

أما فريد مسعود المنكود الحظ فكان يحب الفتاة بقلبه . وهل يحب الشاب لأول مرة سوى هذا الحب الذي تدعو اليه كل قوى نفسه الطاهرة البريئة ؟ كان يحبها باحساسه والغيرة التي شعر بها هي تلك التي تسيل حزناً سوداوياً عميقاً يتخللها شيء من الغيرة الحواسية لان خلاعة الفتاة وتيقظ حواسها المبكر أثارا فيه رغم طهارة عواطفه دماءه الطاهرة المحتلمة ... ولا شيء أقوى من الغيرة الاحساسية متى امتزجت بالغيرة الحواسية .

— ٣ —

انتاب فريداً هذا الألم السام المؤخز القتال وأصابته التيفوئية من جراء الحزن الشديد الذي الم به وقد كانت هذه الحمى الخبيثة منتشرة انتشاراً فظيعاً في حيّه .

قلبت ثلاثة أشهر طريح الفراش بين الموت والحياة . وقد طلب من

أهله نقله الى الغرفة التي تشرف نافذتها على طنف هرمين متخذاً ضوضاء الشارع حجة لتسليته في عزلته المؤلمة ولبث يترقب عودة الفتاة من المدرسة كل يوم وخروجها الى الشرفة بفارغ صبر ليتملى ولو عن بعد من محاسنها مؤملا ان مرضه يشفع له ويثير فيها عاطفة الشفقة والحنان القديم الا ان هرمين كانت لا تخرج الى الطنف الا لتنظر الى الطبقة العليا غير مكترثة بما يبذله فريد لالفاتها وان وقع نظرها صدفة على نافذته لما بدا على وجهها أقل دليل للتأثر كأنها لا تراه ولا تشعر بوجوده .

ولطف الله بفريد فلم يمكث غير شهر واحد في غرفته الجديدة اذ أمر الطبيب بنقله الى غرفة أهوى وما كان يستطيع المعارضة وقد فقد قواه وأخذت حواس السمع والبصر تضعف شيئاً فشيئاً حتى أصبح لا يميز بين من يقترب منه واقتربت منه يوماً والدته فتوهم انها هرمين فمد اليها يده ليصافحها صارخاً بفرح عظيم : « هرمين » !

ولما كانت الام تجهل حب ابنها لابنة الجيران الارمنية وتجهل اسمها نسبت هذه الكلمة الى الهذيان الملازم عادة لهذه الحمى الخبيثة . أما هو فلما تحقق من خطأه ثار فيه الغضب والجنون فهجم على أمه يريد خنقها وخشيت الأم من أن تستغيث لئلا يجزع ويؤثر الجزع تأثيراً سيئاً في مرضه أو أن يلحق بها أن افلتت منه فيسقط على الارض فاضطرت المسكينة أن تلاطفه برقة وظل هو قابضاً بكلتا يديه الضعيفتين على عنقها حتى خارت قواه الضئيلة فتركها وارتمى متهالكا على المخدع يشهق ويبكي .

وفي هذا اليوم خافت الام لاول مرة من ابنها اذ كانت في الحقيقة

هيأته مرعبة مخيفة فقد برزت العظام في وجهه الفوسفوري وغارت عيناه وسط كتلة من العظام تجردت من أثر الشعر وبدت كجمجمة نشرت من القبر ولما ادركت الام أنها لم تعد تقدر تلاطفه التجأت الى أبنة جيرانهم الشامية « روزالين » لتساعدها على ذلك وحمل الام على اختيار هذه الفتاة دون سواها ما كانت تعلمه من ميلها لفريد وقبل أن تدخل روزالين الى الغرفة قالت بخلابة آمرة .

— تسمحلي بالدخول يامسيو فريد

وكان فريد يفكر بهرمين في هذه اللحظة ويتخيلها قادمة نحوه تحييه فلما رآى شبح فتاة على باب غرفته وسمع صوتها النسائي اعتقدها هي وقد اقبلت تزوره وتراه فقال بفرح وسرور وبلا تكلف صفة المحبين .

الله ازاي ما اسمحلكيش . . . خشي ياهرمين . .

فجمدت روزالين بالباب لا تجسر على الدخول وسط الرائحة الكريهة رائحة الحمى التيفودية المنبعثة بقوة من الغرفة وبدت عليها امارات الاستياء عند سماعها اسم غريمتها فتلونت بشرتها البيضاء المشربة باحمرار بسمة صفراوية وشعرت بألم عميق قوي الم الغيرة يسمم دماءها ثم قالت بعتاب مؤثر بعد أن القت خلسة نظرة ذكية على الام الواقفة جامدة بقرب سرير ابنها لتشجعها على الدخول نظرة جعلت الام تدرك كل الحقيقة

— انا روزالين مش هرمين

وشعر فريد ببعض السرور لرؤية فتاة جميلة تميل اليه فقال ولكن بغير لهجة الفرح الاولى :

— اهلا وسهلا . . . خشى يا روز الين

ولكن ظلت الفتاة واقفة جامدة في مكانها لا تجسر على التقدم رغم التوسلات الصامتة التي كانت تقرؤها في عين الام . فقد اعتراها الخوف عند رؤيتها كتلة هذا الجسم المتصلب وهذه الرأس القبيحة الجرداء وذاك الوجه الفوسفوري المخيف واخذت تفكر متسائلة اذا كان هو حقيقة من احبته وتألمت من حبه ثم مالبثت ان ندمت على مجيئها . . .

وكانت هذه المرة الاولى والاخيرة التي عادت فيها حبيبها المريض . . .

— ٤ —

زالت الحمى عن فريد مسعود بعد تسعين يوم وما كاد يشفي من سمومها حتى اصابه الزلال وخفقان القلب والروماتزم الحاد وهي الامراض التي تنتاب عادة الجسم على اثر الحمى التيفودية وكاد يصل الروماتزم الى قلبه ويقضي عليه فجأة لولا لطف العناية الربانية . واخذ الآن الجيران يزورون امه لتهنئتها بسلامة ابنها وفيهم والدة روزالين جاءت بمفردها خلافا لعادتها فظن فريد انها لم تسمح لفتاتها برافقتها في هذه الزيارة خوفا عليها من العدوى ولكن الحقيقة التي كان يجهلها المسكين هي ان روزالين رفضت مرافقة والدتها بدعوى عدم قدرتها ان تشاهد مريضاً يتألم اما السبب الحقيقي فهو انها لم تعد تشعر نحو فريد بالحنان القديم الذي تحول الى شاب غيره . . .

واما فريد فلم يكد يشعر بنسمات الحياة حتى طلب من اهله نقله الى غرفته الاولى تلك الغرفة التي تشرف نافذتها على طنف هرمين الغرفة التي

قضي فيها ساعات طويلة من الليل جالسا الى نافذتها ليتملى من محاسن حبيبته متبلغا بنظراتها الناعسة الوديعة وابتساماتها الحلوة النمامة .

وما كاد يضطجع على سريره حتى نظر الى الشرفة فوجد معلقا عليها ورقة كبيرة بيضاء مكتوبا عليها بخط ثلث عريض « شقة الايجار » فخفق قلبه عند قرأته هذا الاعلان وشعر بحزن مبهم غامض تسرب بسرعة الى صدره فنادى امه وسألها :

— راحو فين جيرانا الارمن ياماما ؟

— راحوفي داهية

— ليه عملولك ايه ؟

— وعايزهم يعملوايه زيادةمن كده . . تحسبني مش عارفةانها السبب فى كل اللي جانا ده .

ولم تذكر الام اسم هرمين في كلامها لشدة حنقها عليها وادرك الفتي انه من العبث الوقوف على شيء من امه فغير موضوع الحديث منتظرا فرصة اخرى ليعرف مصير الفتاة وتمكن فعلا من ان يعرف من جارة عجوز جاءت تزوره ان هرمين اقترنت ولكن لابالشاب الذي نازعه قلبها ولكن بقريب لها لا يعرفه

— ٥ —

مضت خمس سنوات على ذلك وفريد مازال يذكر تلك التي اجتزت قطعة من فؤاده متألما من اثر الجرح القديم . وقد أثرت حادثة حبه تأثيرا

قويا على نفسيته فحولت مزاجه المائل الى السرور وحسن الظن بالمستقبل والتفاؤل بطهارة الانسانية الى مزاج سممته الكآبة القتالة اليأسة والتشاؤم المؤلم مما جعله يرى كل شيء طاهرا جميلا دنسا قذرا اذ لا يرى الا امراض الانسانية حينما تكون نفوسنا مريضة .

فاصبح يرتاب في بنت حواء النزقة الهوائية ويهرب من حبها كما يهرب الانسان من سموم الافعى الرقطاء وربما كان هذا مما يجعله يتذكر هرمين لأنه اذا احب غيرها من الفتيات فالحب الجديد كفيل بان ينسيه الحب القديم

وكان يشعر بحاجة شديدة الى رؤية هرمين ولكن لم تساعده الظروف مرة ان يقابلها أو يعرف منزلها مع انها تقطن في العاصمة وربما في نفس الحي الذي يقطنه

وانه لسائر مساء يوم أحد في شارع عماد الدين المحتشد بذاك الجمهور المختلط الخارج من الملاهي ودور السينما يتصفح وجوه الغادات والفتيات اللاتي يمررن بجواره ملاعبات خطوطهن الرقيقة النسائية ويستنشق اريجهن الذكي واذا بها — هرمين — بين زوجها وصديق له متأبطة ذراع الزوج وتخالس صديقه نظرات خفية ناعسة يجيبها عليها بابتسامة خفيفة . . . فجمد فريد في مكانه يحدق فيها بوله وخفقان قلبه يضرب ضربا قويا متواليا فرأته ولما اقتربت منه القت عليه نظرة عادية باردة ومرت كأنها لا تعرفه . . .

فلبث فريد واقفا في مكانه مشدوها ينظر اليها بوله ويأس حتى اختفى ثوبها الازرق عن نظره ثم حانت منه التفاتة فوجد نفسه ازاء اوبلسك بار وكان البار في هذه الساعة من يوم الاحد يموج بالرجال والسيدات

والفتيان والفتيات يتغازلون ويتضاحكون وهم يشربون نخب سعادتهم الدائمة وحبهم الابدي . .

فارتمى متهالكا على المقعد خائر القوة فاقد العزيمة متألما بقسوة وحشية من ذلك الجرح الدامي القديم الذي فتح فجأة في اعماق قلبه بعد ان ظنه التأم ثم جره مزاجه السوداوي الى تأملات فلسفية حزينة متشائمة شبيهة بنفسه السوداء :

— من السذاجة الاعتقاد انه يمكننا ان نطبع على قلب المرأة التي احببناها واحبتنا وسمة عميقة دائمة . فمن اراد ان يترك تأثير الذكري في نفس المرأة كمن يريد ان يترك وسمة ختم على صفحة المياه الجارية . . . ان المرأة لاتجلب الى الانسان اللذة والسعادة ولكن الاضطراب والوساوس السوداء والشقاء

مارس سنة ١٩١٨

مذكرات حكمت هانم

(مذكراتي قبل الزواج)

اول مارس سنة ١٩١٩

جلست ازاء المشربيات المشرفة على الشارع بجوار نينه وهي مطرقة صامتة تنظر الي بعينين تغمرها شفقة الامومة الممزوجة بمسحة من الحزن المختبئ الساكن .

مسكينة نينه ! يحزنها أن تراني غير متزوجة في العشرين بينما ترى بنات معارفها يتزوجن في الثالثة أو الرابعة عشر وتود أن تراني متزوجة سعيدة ولكن هل السعادة في الزواج ؟ هل هي سعيدة في حياتها الزوجيه وهي تكاد تحتضر غيرة من ضرتها ؟ هل صديقي احسان هانم سعيدة مع زوجها محمد بك . . . ليتني استطيع افهامها بانى راضية عن حالتي الحاضرة ولا ارغب في تغييرها .

١٠ مارس

زارتنا اليوم امرأتان لم تسبق لنا معرفة بهما . احداهما نصف قصيرة ممنطقة بمئزرين ومقنعة بنقاب شفاف ينم عن وجه رزين مهيب بدأت تخطه تجعدات الشيخوخة والاخرى « بنت بلد » سافرة ملفوفة بملاية بالية قاتمة . فلم أكد أراهما داخلتين حتى فهمت القصد من زيارتهما ولم انتظر اشارة نينه بل ذهبت توا الى غرفتي لارتدي أفخر ثيابي المنزلية وانظم شعري وأطلي وجهي الشمعي الذابل بمسحة من المسحوق الابيض والاحمر لاروق في عين

الزائرتين وما بدأت أفعل حتى دخلت نينه مبتسمة مسرورة قائلة « البسى يا حكمت . . . أم حسن بك جت تشوفك »

فتكلفت عدم المبالاة وقلت بلهجة جافة يتخللها الكبرياء « ومين ده الاخرى كمان » غير أنها لم تسمع عبارتي اذ خرجت مسرعة حتى لا تتركهما وحدهما وشعرت وأنا انظم شعري بحرارة ملتهبة تسري في عروقي لم اعهدها فى نفسي جعلتني افتكر رغماً عنى عما سببها :

— هل يسرني الزواج و كنت أجهل اميال قلبى ! أم خفت بدافع الغريزة النسائية ان لا اظهر لهما جميلة بقدر ما أريد

حاولت تصوير المشاعر الدقيقة التي خالجتني ولكني عجزت لعدم تعودي التعمق في التفكير وتساءلت مراراً لماذا اود ان أظهر لهما جميلة ليقولا عني « حلوة زي البدر » او ليسمعاني كلمات الاطناب الموهة السخيفة الصبيانية . لا هذا ولا ذاك ولكني كنت خاضعة على ما أظن لسلطان عامل الفضول الذي يدفع الفتاة الى حب الوقوف على العالم المجهول

وما كدت ادخل على الزائرتين حتى قابلتاني ببشاشة ولطف لا سيما بنت البلد فكانت تكثر من كلمات التمليق المنمقة الكاذبة وساد السكون عقب مجيئي اخذت في خلاله المرأة النصف تنظر الي باهتمام وفراسة وخيل الي ان انظارها الحادة العميقة قد جردتني دفعة فخجلت من نفسي وأطرقت الى الارض . ولحظت الخاطبة حالنا ولتؤثر في حكم ام العريس اسرعت فقالت لي « تعالي يختي أشوف مناخيرك اللي زي النبقة وحنكك الشهد » . ثم التفتت اليها وقالت بصوت طبيعي كأنها تقرر حقيقة ملموسة « مين اللي يشوف

حكمت هانم ويقول انها كانت السنة اللي فاتت تلعب ويا البنات في الحارة . . .
ده زغار خالص ياست أم حسن » . فأجابتها السيدة برقة « ما هو باين عليها
يختي » ولا شك انها لم تقل ذلك الا من باب المجاملة لأني قرأت على ملامحها
عدم التصديق .

وكانت الخاطبة تنظر نظرة خفيفة الى نينة بعد كل عبارة من عبارات
بلفها الساذج الثقيل كأنها تريد ان تقول لها ارأيت مقدار الخدمة التي اسديها
اليك فلا تنسى ان تكافئيني عليها عند الحساب ونينه تجيبها اجابة صامتة
يائسة بأطراق رأسها الى الارض

وأخذت اراقب السيدة فوجدتها مازالت تتفرس في كل قطعة من
تكاويني وشعرت في هذه المرة أيضاً بأن انظارها الحادة تكاد تتغلغل في
جسمي فاضطربت وزاد اضطرابي عندما سمعتها تقول

— والنبي اسقيني كوباية مايه يابنتي

ولم يكن بها ظماء ولكنها تبغي معرفة كيفية سيري ونقل قدمي فقمت
وحاولت ان أمشي برزانة ولطف لاظهر لها جمال تقاطيعي وانسجام خطواتي
ولكن اخذني الاضطراب لعلمي ان انظارها الحادة تتبعني فعثرت في
سيري ثم خيل اليّ اني توقفت فجأة عن السير وما كدت أأتيها بالشراب
حتى اعتذرت بحجة اني موجعة الرأس ولزمت غرفتي وأنا أضحك فتغيظة
من نفسي وسمعت السيدة بعد برهة تقبل نينه وتقول لها بتكلف « تبقي
تشرفينا يا هانم ونينه تجيبها نتشرف ما نستغناش »

مامعنى هذه المجاملات الباردة . . . الم ارق في نظرها ؟ ام وجدتني

كبيرة على ابنها ؟

١٥ مارس صباحا

انتابني اليوم الضجر وكثيرا ما تداهمني نوباته فلا اعرف لها مسكنا سوى الصعود الى سطح المنزل حيث اسرح الطرف في ذلك الفضاء المترامي مستنشقة النسمات الرطبة المنعشة ولكن قلما يفيدني هذا الدواء فاعمد الى المطالعة غير اني لا اتار عدة صفحات حتى يتبين لي اني لم افهم شيئاً مما قرأته فاترك الكتاب يائسة ملبدة الذهن موجعة الرأس واظل فريسة ذلك الداء الخبيث الذي يتسرب بسرعة الى قلبي ويغمر صدري بالسويداء القاتمة القتالة

اذكر اني اسررت يوما الى خالتي فطومة بما يخالجني من الضجر وينتابني من الصداع ولا أزال اذكر قولها الموسوم بالشفقة الغبية

— ياستي ماتعملي زار وترضي الاسياد

١٥ مارس مساء

لم يفارقني الملل وقد بدأت أشعر رغما عني ان حياتي أصبحت كئيبة سقيمة جوفاء وبدأت أتمنى تغييرها . ولقد مر بالفتاة مثل هذه الظروف النفسية فتجعلها تتطلع بشغف الى تغيير نظام حياتها والانتقال الى حياة أخرى تبدو لها مزدانة بالالوان الارجوانية المتماوجة الخلابة . . . وأظن ان ذلك ما يريدنا رغبة في الزواج

افكر في الزواج فيتجلى لي ما جره من الشقاء على صديقاتي وبنات جنسي فتساورني الاراء المتضاربة المتناقضة وينتابني ذلك الشعور الغامض

الذي يحس به الانسان عند ما ينتقل من حال اعتادها الى حالة جديدة لم يألفها ولكن بدل أن تسري في نفسي هزة الخوف والوجل من المستقبل أشعر بلذة مثملة تجتاح كل جسمي فكرت كثيراً في ذلك وخيل الى أن أسبابها ترجع الى تفاؤل المرأة الشرقية . فان عقائدنا الدينية وأخلاقنا الموروثة قضت على روح اليأس والتشاؤم المتمشية في نفوس الغربيين وجعلتنا نؤمل بالغد مستسلمين بعذوبة الى العناية الالهية . فكم امرأة شرقية تنعم مبتسمة وهي في أشد حالات الشقاء

— ربنا كريم . . . بكره تتعدل . . . الصبر طيب . .

اليست هذه كلمات تدل على تفاؤل جميل يمنحها العزاء وقوة الامل والثقة بالمستقبل ؟

٢٥ مارس

جلست وأم محمد الدادة جاثمة تحت قدمي ملازمة الصمت وهي أمرأة ثرثارة تستدعيها نبنه ساعات الملل والضجر فتقص عليها قصة عنترة أو أبي زيد الهلالي أو نوادر جحا اطالع رواية زينب تأليف الدكتور محمد بك هيكل وأني لغارقة في تتبع احساسات تلك الفتاة القروية المصرية التي تجللها مسحة شعرية غربية يندر وجودها في فتياتنا الاميات واذ بفطومة تقود صديقتي ماري نعوم

ماري نعوم فتاة سورية كانت رفيقتي في مدرسة الراهبات وحافظت على صداقتنا القديمة وتعرف أن زيارتها لي تسرني هي كأني . فتكلمنا في موضوعات شتى وساقنا الحديث الى الكلام عن حرية المرأة

فاخذت اندد بهذه الحرية التي افسدت اخلاق كثيرات من الفتيات الاجنبيات وأكبرت تقاليدنا الشرقية التي حافظت على طهارة اخلاقنا وهي تدافع عن تقاليدهم بحرارة وغيرة مفندة أقوالي زاعمة ان حاسة الحب في الفتاة السافرة المحررة من ربقة التقاليد القديمة ضعيفة جداً وانها بعكس ذلك قوية حادة في الفتاة المحجبه وقالت تأييداً لزعمها أن الحجاب في حرمانه المرأة الشرقية من معاشرة الرجل والوقوف على اسرار المجتمع الانساني المريب يحافظ على سذاجتها ويقوي فيها ملكة الخيال ولا شيء يولد الحب ويقويه كالخيال . فهي تنظر الى هذا العالم الغامض المجهول نظرة بريئة متفائلة تنظر له بمنظار الخيال لا بعين الحقيقة المجردة وهذا ما يسهل على الشبان خداعها فاذا تظاهر لها شاب بالحب واسر في أذنيها كلمات عذبة رقيقة تصدقه لانها ساذجة النفس طاهرة القلب . وزادت على ذلك قولها : « أن الفتاة المصرية المطلق لها حرية الاختلاط هي التي تخدع الشاب قبل ان تتركه يخدعها لأنها تكون مالكة زمام عواطفها تقودها وتسيرها كما تشاء ولا تخضع قط لسلطان تلك العواطف العمياء »

اخذت افكر وأنا اخط هذه الاسطر في أقوال صديقتي الشاذة وأحاول تكذيبها وتخطئتها . نعم انها مخطئة مخطئة وقد أفسدت الحرية المموهة مخيلتها كما سممت عواطفها فهل يمكن ان ترمي تقاليدنا الشريفة القديمة بمثل تلك التهمة الباطلة الشنعاء ؟

٢٨ مارس

نينه اليوم مسرورة لزيارة والدي لنا . اه ! لماذا لا يطاوعني القلم فاكتب

كلمة بابا مكان كلمة والدي ؟ لماذا لا أستطيع ان أدعوه بهذه الكلمة المحبوبة كنادائي والدتي يا نينه ؟ لماذا لا أكلمه بلا تكلف واسر اليه ما يجول في صدري كما افعل عادة مع نينه . . لماذا ؟ لماذا ؟

السبب اني لا أحبه لانه انانى يثير في نينه المسكينة آلاما قتالة كان آخرها زواجه من فتاة اصغر مني سنا ثم هو لايحبني ولم يتعهدني قط بشيء من العطف الابوي ولم يمنحني قبلة واحدة . انه لا يعبأ بي وأهمل وجودي الى درجة تؤلم احساسي وكرامة نفسي

واليوم بعد غياب أسبوع عن المنزل حياني بفتور « ازيك ياحكمت » ودخل حجرته حتى دون ان ينتظر اجابتي . فسكنت الى حجرتي لاخفي شدة تأثري .

٣٠ مارس

جاءت زكية الخاطبة فاختلت بنينه .

أردت بعد برهة دخول الحجرة لاقف على نتيجة زيارتها فسمعت نينه تبكي والدادة تحاول تعزيتها بقولها :

— ياختي بتعيطي ليه . . . خلي العسل في زياره لما تجيله أسعاره . .

دي حكمت صلاة النبي عليها تقول للبدر غيب واقعد مكانك

فادركت اني لم ارق في عين أم العريس

أول ابريل

وقع شجار هائل بين المعلم مسيحه والشيخ عبدربه . فقد انفجرت مرة اخرى بشكل مريع تلك العداوة القديمة عداوة الحرفة والمنافسة المستحكمة

بين هذين البائعين واشترك في الشجار أفراد عائلة كل منهما حتى سالت الدماء وانجلت المعركة عن اصابة الشيخ عبد ربه بجرح بليغ في رأسه من حجر رمي به وبكسر درسين من فك المعلم مسيحه من اثر ضربة « روسية »

وكان قد خاف العقلاء من تجار الحي والجيران نتيجة عداوة هذين الرجلين المتبايني الاديان لئلا ينسب اعداؤنا عداوتهما الى التعصب الديني فتداخلوا بينهما وفضوا النزاع وحملهما على المصافحة الان كل مرة كانوا يصطدمون بقوة عنادهم النبي وما وضعاه شرطاً لصلحهما

فقد كان احدهما المسلم يطلب مصراً نقل المعلم مسيحه حانوته الى حي آخر بحجة انه يأخذ منه عملاءه ويذيع عنه اشاعات مضرة بسمعته ورواج بضاعته وكان التاجر القبطي يطلب عين الطلب لأقدميته وكلاهما يرى في قبول هذا الشرط ثلماً لكرامته

وادى شجارهما في هذه المرة ايضاً الى تداخل البوليس ففتح لهما محضراً .

٧ ابريل

اصبحنا اليوم واذ بحركة غير عادية في الشوارع . شاهدت اناساً مختلفي السحن والازياء يسيرون زرافات وجماعات وتدل سيماؤهم على الفرح والسرور يحملون من الاعلام المصرية مختلف الحجم وكنت اسمع اصوات هتاف بعيدة صادرة بلاشك من جوف المدينة وعبثاً حاولت معرفة ما يهتفون به واذ بجماعة من الطلبة اخذوا في حيّنا يسيرون صفوفاً منتظمة متراصة متتابعة يسير في مقدمتهم واحد منهم يحمل علماً مصرياً كبيراً رسم عليه الصليب يعانق الهلال وكتب تحت هذا الرمز الوطني « يحيى الاستقلال التام » وكانوا

يهتفون بكل قوام يحي « سعد باشا زغلول » يحي الوفد المصري

ومما اثار قشعريرة في جسمي عشت في جميع اعضائي حتى اسالت عبراتي نداءهم بحرارة وايمان واخلاص نداء الشهداء عندما تفيض أرواحهم الطاهرة الى بارئها « نموت فداك يامصر »

ماذا جد ياترى ؟ أألغيت تلك الحماية التي يقولون ان اعلانها كان ضرورة حربية ؟ ام اطلق سراح رجال الوفد المعتقلين فصرح لهم بالسفر الى مؤتمر الصلح ؟ ولكن اتطلق انجلترا سبيلهم وتعدل عن سياستها التقليدية من خنق الشعور الوطني واخماد النار المتأججة في الصدور وهي التي لاتهبأ الا بالقوة ؟

ظل الهتاف يتعالى والجموع في الشوارع تتزايد متفجرة من كل فج وصوب فاثيرت في نفسي رغبة شديدة للاشتراك في مظاهرة الامة . فطلبت من نينه السماح لي بالخروج تلبية لداعي الوطنية السارية في جميع أعصابي وعروقي الا أنها أبت بشدة خوفها علي من الازدحام وخطورة المظاهرات واني لاحاول اخذها بالدهة والكياسة واقناعها بانه لا يصيبني شيء مما تتوهم واذ بالباب يقرع قرعاً حاداً قوياً متتابعاً أجفلها وبعد قليل دخلت علينا صويحباتي حورية وسعاد ومحبات والاولى ابنة وزير مشايع للانجليز استبقاء لمركزه والثانية ابنة أحد الاعيان اما الثالثة محبات وسنها لا يتجاوز الرابعة عشر فهي ابنة ضابط وطني كبير كان يود ان ما اراقه من دمائه في مجاهل السودان لاخضاع بعض قبائلها الثائرة يعود بفائدة على وطنه المهضوم الحقوق وكانت ترتدي مئزراً من الاعلام المصرية الجميلة الخلابة وعلى صدرها نفس الرمز

الوطني : « صليب يعانق هلالا »

جئنا نبشرك ياحكمت فقد نلنا اعظم انتصار على الحكومة الانجليزية اذ اننا ارغمناها لاول مرة على اجابة مطالبنا

فسألتهن هل نلنا الاستقلال فاسرعت سعاد الى اجابتي وعلى سيمائها ابتسامة حلوة مسكرة لاانساها ابدا « اننا سنعتبر انفسنا مستقلين لاترتبطنا بانجلترا علاقة ما » وتداخلت هنا محبات الصغيرة مدفوعة بحرارة دماء ابيها الحربية الجارية في عروقها وقالت بهزة حماس ونبرة مرسحية « فلتكن مصر ارلندا ثانية ولتفعل بنا انجلترا ماتشاء فنحن مستعدون ان نذهب جميعا شهداء الحرية

قالت ذلك ودفعت صدرها الآخذ في التكون والنضوج الى الامام كأنها تعرضه لرصاص الاعداء . آه ! ما أجملك يامحبات في هذا الوقت . فاذا كنت فاعلة لوان روحك الكبيرة الطاهرة في رجل

وهنا قاطعتنا زغاريد فطومة وام محمد وكانتا تتسمعان ما نقوله واخذت فطومة ترقص رقصة قروية مدفوعة بهزة الوطنية وتتغنى هاتفة بأناشيد مبهمة صعيدية لم نتمكن ان نفهم منها غير عبارة « استجللنا يابنات » وكانت تتردد كثيراً في مقطوعاتها

أثار رقصها ونشيدها ضحكنا وسكن من تهيج صويحباتي الا ان حورية كانت ترمقها بنظرة عميقة ذكية محاولة الوقوف على قرارة نفسها الغامضة متسائلة هما اذا كانت هذه المرأة الامية الجاهلة تدرك معنى الجملة التي لم تحسن حتى النطق بها أو انه التأثر العصبي قد سرى منهن اليها بحكم العدوى ثم

ما لبثت أن سألها برقتها المعتادة « يعني ايه استجلدنا ياخالتي فطومة » فأجابتها الاسيوطية بداهة وقد فهمت قصدها . « واه ! يعني زعطنا الانجليز من مصر »

فابتسمت حورية تلقاء ذلك وقد تجلى الايمان الوطني في وجهها الاسمر المشرب باللون الوردي الجميل .

حقيقة ان الوطنية متى تسربت الى العامة واستقرت في نفوس الطبقة الامية والمنحطة الجاهلة لهي وطنية سامية خالدة لا تموت ولا تقهر .

وبينه خلال هذه المدة كانت تغلق الابواب والنوافذ فلاحظتها محبات الصغيرة وأدركت ما يجول في خاطرها فقالت ماتخافيش يابنته الوزارة المصرية متضامنة مع الشعب المصري في طلب الاستقلال التام فلم يعد الوزراء المصريون يشايعون الانجليز .

وما كادت تقول القطعة الاخيرة من عبارتها حتى ندمت اذ رأت حورية قد اصفر وجهها ونكست برأسها قليلا الى الارض بعد ان القت عليها نظرة عميقة نظرة الم وعتاب . فان هذه الفتاة الوطنية المسكينة مازالت تتألم سرا من ابيها ايام تمسكه بوظيفته مدعيا تأييد خطته اوليوجد عذرا امام ضميره يبرر به عمله انه انما يضحي راحته وكرامته ويقبل تحمل اعباء المسؤولية في الظروف الحرجة المملوءة بالمحن حبا بالمصلحة العامة وخوفا من ان تقضي انجلترا على البقية الباقية من قوميتنا

فتأثرت سعاد واخذتها الشفقة على حورية واسرعت تقول متداركة خطأ محبات ان وزراءنا مصريون قبل كل شيء ولكنهم خدعوا فقط بحسن نية انجلترا ورجعوا الآن جميعا الى حظيرة الامة

فشكرتها عندئذ حوريه بنظرة

* * *

طلب الى صويحباتي ان ارافقهن وكانت تنتظرهن السربة على الباب مزدانة بالاعلام الجميلة ونينه التي كانت تعارضني في النزول رأيتها تدفعني الى ذلك .

وما كدنا نصل الى الشارع حتي استرعى نظرنا منظر مؤثر للغاية . فقد رأينا الشيخ عبد ربه يعانق المعلم مسعيد قائلا بنشوة فرح اختلجت لها عضلاته نحن اخوة يامعلم مسيحه لايحق لنا ان نتشاجر ورأينا القبطي يقبله ويضمه الى صدره كأنه يعانق أخاله لم يره منذ سنين عديدة

واجتمع حولهما جمع غفير يصفق لهذه العواطف الوطنية المتجلية بابهى مظاهرها والمثيرة في النفس نشوة طرب وأعجاب وكان القوم يهتفون بكل ما فيهم من قوة : يحي الاتحاد .

التفت عندئذ الى رفيقاتي فوجدت الدمع يترقرق في أعينهن الطاهرة ركبنا العربة فأخذت تجتاز بنا الشوارع الوطنية ووقفت بنا زهاء ساعة كاملة في ميدان عابدين لتعذر المسير وكان الميدان على سعته محتشداً بطلبة الازهر وطلبة المدارس العليا والثانوية يحيط بهم أبناء الشعب قاصدين بيت زغلول والباسل للهتاف لهما

وشاهدنا الاجانب يحيون هذه المظاهرات البريئة السلمية برفع قبعاتهم و السيدات من وطنيات وأجنبيات يصفقن ويلوحن بمناديلهن من شرفات المنازل ويلقين الزهور والورود على المتظاهرين وكنا كلما مررنا بنساء وطنيات

« بنات بلد » يستقبلننا بزغاريدهن أو بلفيف من الشبان يحيوننا بهتافهم « تحي السيدات المصريات » « تحي أمهات المستقبل » ورفيقاتي يجبنهم « تحي الشبيبة المصرية . نعيش أحراراً أو نموت كراماً » اما أنا فبادي بدء لم اكن أستطيع مجاراتهن في الهتاف لشدة خجلي ولكن سرعان ما تلاشى هذا الخجل ودب الحماس في عروقي

والامر المدهش ان هذا الخروج عن تقاليدنا لم يقابل بالاشمئزاز والاستهجان من جماعة المحافظين المعممين بل كثيراً ما كانوا يشجعوننا بالتصفيق والابتسام وأحياناً كثيرة بالهتاف . . ان ثورتنا هذه ستؤثر بلا شك تأثيراً قوياً في تقاليدنا وتؤدي بنا الى التطور السريع في نظام حياتنا الاجتماعية .

وكنا نشاهد عربات النقل تحمل نساء وطنيات من الطبقة المنحطة ينشدن اغاني وطنية جديدة ويرقصن الرقص البلدي على الدفوف وامتلأت الشوارع بالقرويين الوافدين بلاشك من الضواحي او القرى المجاورة للقاهرة يتقدمهم طبول وزمور وجمال مزينة كما تزان عادة في مظاهر الافراح اما قطرات الترام فكانت تكللها فروع من الاشجار وسقف النخيل مكتظة بالطلبة وتضطر بعضهم لأن يملو سطحها مجازفا وهم يهتفون للاستقلال والاجانب ، مما ملأ النفس ثقة وايمانا ان فصيلة من الجيش المصري تمكنت من الخروج من ثكنات العباسية للاشتراك في المظاهرة فهتفنا لها مع الجميع « يحي الجيش المصري » فاجابتنا بشجاعة المصريين المعهودة « تحي الامة المصرية . . . مصر للمصريين »

اما جنود الاحتلال فكانوا يسيرون مجردين من السلاح وشغفت بقراءة مايجول بافكارهم ومشاعرهم فاخذت اتفرس في وجوههم فرأيت البعض واظنهم من الاحرار الكارهين سياسة دولتهم الاستعمارية يقابلون انفجار وطنيتنا بعين الرضاء والتسامح وآخرون استفزتهم مظاهراتنا البريئة السلمية فاخذوا يبسمون لنا ابتسامة السخرية والاحتقار وعينهم مفعمة بالحقد والغدر واقترب أحدهم من عربتنا في ميدان باب الحديد ونظر بوقاحة الى مئزر محبات المجلل بالعلم الوطني وقال ساخرا بعربية مكسرة « يحي وطن يحي وطن » . . . فثار غضب محبات ابنة الجندي المحارب وغلى في عروقها الدم العسكري فهمت ان تصفعه على وجهه تأديبا له لولا تداخلنا وايعازنا الى الحوزي بمتابعة السير

* * *

ختمت مظاهرات اليوم بمأساة محزنة مؤلمة دبرتها يد خفية هالها مارأته من مظاهر اتحادنا وقوة وطنيتنا الحية الخالدة فأوعزت الى بعض الجنود الانجليزية باطلاق الرصاص على المتظاهرين لحملهم على الخروج على النظام والقانون فيتاح لهم حينئذ مصادرة المظاهرات المذكية للوطنية بحجة حفظ الامن العام . فاستعد بعض الجنود لذلك ودخلوا حديقة الازبكية واوصدوا ابوابها واخذوا يطلقون الرصاص من وراء السور فاصيب ثلاثة من الجنود المصرية وهاج الجمهور وماج وكادت تتحول مظاهرتنا البريئة السلمية الى ثورة دموية هائلة لولا تداخل بعض العقلاء من كبار المصريين وكنا وقتئذ بجوار شبرد وشارع كامل مكتظ بمئات من السيارات

العربات والرصاص يمر فوق الرؤوس وبدل أن تخيفنا هذه القوة الغشومة وتشتت شملنا الهبت نفوسنا فابينا الرجوع واصررنا على المرور أمام الحديقة وكانت فصائل من الفرسان الانجليز أسرعوا بالمجيء ومنعوا المرور من هذه الجهة ليقطعوا أوصال المظاهرة وكانوا يضربون بالرصاص كل من يتجاسر على مخالفة أوامرهم ولقد كنا أول من أعرض عن هذا الامر. فاوعزنا الى الحوذي أن يمر دون أن يبالي بهم وما كاد يتقدم عدة أمتار بالعربة حتى صاح به ضابط انجليزي بالوقوف فلم يفعل فلم نسمع بعد قليل الا والرصاص يصفر في الهواء مارا بقرب اذاننا فالتفتنا اليهم حينئذ وهتفنا بكل ما فينا من قوة . . . فليسقط الظلم ولتحي مصر حرة مستقلة . . .

٨ ابريل

عرفت اليوم لماذا أطلقت انجلترا سبيل رجال الوفد الاربعة المعتقلين فانها ارغمت على ذلك بسبب هياج الامة اذ أن سياسة الشدة التي تستعملها عادة لخنق الشعور الوطني واخماد كل حركة ثورية ترمي الى الاستقلال أدت هذه المرة الى انفجار قوي هائل هدم دفعة ماعلق في اذهان بعض أهل الغرب من أن الشرق نائم الف حياة الذل والاستعباد

فان مصر الساكنة المستسلمة بحكم طبيعة بلادها ذات السهول المنبسطة الخالية من الجبال والمفاوز التي تحمي من بطش الدولة الحاكمة كل من يلتجيء اليها من الثوار مصر الوديعة هبت دفعة واحدة مطالبة باستقلال بلادها والغاء الحماية الباطلة

ان تساهل انجلترا بعد الشدة جعلني اعتقد رغما عني ان الاستقلال

خذ أخذاً لا يمنح منحاً وان أمة تطالب بحريتها يجب أن تضحي دماء نائها الذكية في الحصول على تلك الحرية .

اه : يالهي ! نحن أمة وديعة محبة للسلم والسكون أمة نظام وعمل لكنها وطدت العزيمة ووطنت النفس على استرداد حريها وحقوقها استقلالها مهما كلفها ذلك من الضحايا . فلا ترغمنا يالهي على مقاومة الشدة لشدة ومقابلة الشر بالشر .

٩ ابريل

اني أشعر بوطنية ملتهبة في عروقي تدفعني الى عمل مجيد أريق له دمائي لكن ما هو ذلك العمل الذي يعود بفائدة على الوطن .

١١ ابريل

لا أدري لماذا مر اليوم بفكري كتاب كنت قرأته منذ زمن عن نهيلست . فقد فكرت في الادوار التي قامت بها المرأة الروسية للحصول على حرية وطنها وما تحملته في سبيلها من آلام النفي والسجن والمرض والبرد والجوع فثارت في نفسي عواطف الشفقة والحنان وأعقبتها عوامل الاعجاب وحب التضحية

١٤ ابريل

ان رغبتي في التضحية تزداد يوماً عن يوم كما ان ميلي الى التفاني في خدمة وطني ينمو ويتعزز ففكرت ان اكون حزباً نسائياً متطرفاً وأنضم اليه ميولات حورية وسعاد ومحبات وغيرهن ليكون ذا قوة هائلة في وجه من تحدثه نفسه من ذوي الاغراض السافلة والمطامع الدنيئة على خيانة الوطن .

فان الخطة التي يجب أن نرسمها في كفاحنا ضد انجلترا المقاطعة والتخلي عن مقاليد الامور . . فسكل مصري يخالف ذلك واعتماية لم ترفع ويعترف لنا رسمياً باستقلالنا يرتكب أفظع الجرائم لا يبررها حسن نيته . ولقد خدعنا مرة بحسن نية انجلترا وشريف مقاصدها فلا يجب أن نخدع مرة اخرى والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين .

١٣ ابريل

صادفت فكرتي هوى شديداً في نفوس صديقاتي واخذنا في درس المشروع من كل وجهة واعداد مايلزم له من المال والمهمات

١٤ ابريل

أن حياتي لم تعد كئيبة جوفاء اذ عرفت كيف استخدمها وبطريقة تنمي مواهبي والسعادة كما قال أحد الفلاسفة تنحصر في عمل الواجب وانماء المواهب واستثمارها .

١٥ ابريل

جاءت زكية الخاطبة فاختلت بنينه وبعد برهة جاءت نينه وعلى سيمائها امارات الفرح الا أني لاحظت أنها تخفي بعض الاضطراب والالم

— جالك عريس ياحكمت . . . بس كبير شويه عنك . . . يطلع ابن خمسين . . . لكنه غني وموظف كبير في الحكومة . . . فكرك ايه ؟

قالت ذلك وامسكت لترى تأثير وقع كلامها على نفسي الا أني لم احرك ساكناً ولبثت شاخصة فيها جامدة وأنا اليوم بعيدة الفكر عن الزواج لانه يعرقل مشروعنا الوطني وقد تدفع زوجي حقوقه الموهومة الى التداخل في

أعمالي وهذا ماتأباه علي وطيتي الا أني لا أدري كيف اجبت والدتي « الامر أمرك يانينه » هل كان ذلك شفقة مني عليها أو رغبة في ابقاء سعادتها لها وهي التي تتألم من بقائي بلا زواج للآن .

ولم أكد أجيبها بذلك حتى أقبلت على تعانقني وتضمني الى صدرها آه يانينه ، أني لن أطمئن قلبك الرقيق الحساس طمأنة تؤلمه وتدميه . فاذا كان يسرك زواج ابنتك هذا السرور سأتزوج ارضاء لك .

١٩ ابريل

لم استطع النوم ليلة أمس . انتابني افكار متناقضة متضاربة . أتألم لزواجي من شيخ بحاجة الى ممرضة اكثر منه الى زوجة وقد منيت النفس أن أتزوج من شاب يحبني واحبه وأخذت أسكن الي بتعليلي : « وماذا يهم سواء أكان زوجي المقبل شاباً او شيخاً مادام قلبي خالياً من الحب وللشيخ مزايا لا تنكر فعواطفه تكون هادئة عميقة واخلاقه كريمة وسيرته مستقيمة لا يشين في الاسرة تلك المواصف التي يثيرها عادة الشاب بنزقه وسوء سلوكه وبما انه يكون قد اقتنع بالحياة فلا تحدثه نفسه على الطلاق فاعيش انا واطفالي عيشة رضية واثقة بالغد وترفرف علينا السعادة

ولكن رغم هذا التفكير فان ألمي لم يسكن ولم أشعر الا والدمع ينسكب على وجهي واخذت الزفرات تتصاعد رغماً عني حتى كادت تقلع روحي كل ذلك ونينه في الغرفة المجاورة لاهية فرحة تدمع أم محمد ممدات الفرح

١٧ ابريل

قام في نفسي تنازع جديد . فان هذا الزواج يخيفني ويهز في جسمي

فشعوري باردة مثلجة كتلك التي تعتري من ينظر من رأس قمة عالية سحيقة وكلما تصح عزيمتي على رفض الزوج تتراءى لي نينه المسكينة وهي تضغي الى صدرها فرحة مسرورة وأشاهد ابتسامتها الحلوة قد تحولت الى كآبة قاتمة حزينة وجال الدمع في عينيها الجميلتين .

اه ! يانينه ! لا أستطيع ان أزيد شقاءك . فسأجلب شيئاً من السعادة لك انت التي جهلتيها طول حياتك

دسمبر سنة ٩٢١

تمت المجموعة الاولى من سلسلة القصص المصرية المصرية . وتليها المجموعة الثانية وستنشر تحت اسم « ثريا »

واننا . نعتذر للقراء من صغر حجم هذا الكتاب اذ قد أرغمنا على ذلك لنفاذ نوع الورق الذي سبق اشترينا منه وعدم عثورنا على نوع يضاهيه وقد حملنا هذا الامر على ارجاء نشر تتمة « مذكرات حكمت هانم » المتضمنة لتاريخ نهضتنا الوطنية الى المجموعة الثانية .

obeikandl.com

فهرست

	صفحة
كلمة الاهداء	١
كلمة عن الفن والادب الحديث في مصر	٣
احسان هاشم	١٩
أنا لك ...	٢٨
مأساة قروية	٤٢
النزعة النسائية	٦١
مذكرات حكمت هاشم « قبل الزواج »	٧٢

obeikandl.com

تحت الظهور

﴿ المؤلف ﴾

ثريا

مجموعة قصص عصرية مصرية مؤلفة من جملة قصص متنوعة المواضيع متعددة الالوان وهي ثريا ـ الكازينو ـ اصابة العين ـ مملكة القلب ـ الست جيانة ـ ثورة نفسية ـ نائب الهال ـ مذكرات حكمت هانم بعد الزواج وتتضمن هذه القصة الاخيرة تاريخ نهضتنا الوطنية ودرس عناصرها وعواملها وتطورها وشخصية زعمائنا مع تصوير حياتنا الداخلية العميقة .

نظرات وملاحظات فنية

نظرات وملاحظات فنية ـ كتاب نقد ادبي يحتوي على المواد الآتية درس في ذهنية الكاتب المصري ـ نفسيته ـ ميوله ومواهبه ـ اسلوبه الفني والانشائي ـ علم النفس ـ تطبيقه على الادب ـ الادب الحديث ـ صفة الادب العلم اللغة التصويرية الجديدة الفن ـ قواعده ـ وظيفته الاخلاقية والاجتماعية علاقة الفن بالادب علاقة الادب بالعلم ـ المرسح المصري ـ . مرسح حديقة الازبكية مرسح الغد .

A paxarte : paropitre

(Sur les bords du Nil) racueil des nouvelles sur l'Egyple contemporaine